المملكة المغربية

kitabweb-2013.forumaroc.net

الثقافة المغربية

مجلة تعنى بالثقافة والفكر

تصدرها
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة
المديرية العامة للثقافة

9

1973 1393

تعبر الابحاث والمقالات المنشورة فى هذه المجلة عن آراء اصحابها

الثقافة المغربية

مجلة تعنى بالثقافة والفكر

تصدرها :

وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة

(مديرية الشؤون الثقافية)

زنقة غاندى ـ الرباط

(المغرب)

تليفون : 91ـ318 / 93ـ318

ثمن النسخة : ثلاثة دراهم

الجزء التاسع 1973

الفهرس

ـ دراسات :

صفحة

7 قصيدة أنجم السياسة .....عبد الله كنون

29 دراسة فيمصادر التاريخ المغربي(2)..د . عبد الكريم كريم

38 الشعر القديم والالتزام .....د . جعفر الكتانى

42 فى الديبلوماسية المغربية .....حسن السائح

55 نظرات مقارنة فى القصة العربية
فى العراق .....د. على القاسمى

84 من ريحانة الكتاب لابن الخطيب ..د. محمد كمال شبانة

ـ تاريخ :

108 الادب المغربى أيام المرابطين
والموحدين .....د. محمد الأخضر

118 غرناطة ، أو مغرب شمس العرب ..عبد الكبير الفاسى الفهرى

ـ ترجمات :

124 الشاعر عاصم بن زيد التميمى ....د. عبد السلام الهراس

ـ قصص :

134 وقادون من المكسيك .....وليم باريت
ترجمة : عبد المجيد بن جلون

140 عندما تندثر اشياء وتنبعث أخرى ..محمد الصباغ

146 والجروح قصاص .....أحمد عبد السلام البقالى

قصيدة انجـــــم السياســـــة (*)

بقلم : عبد الله كنون

هى قصيدة فريدة فى موضوعها ، لا نعرف لها نظيرا فيما تناولته من مادة السياسة وتدبير الملك بأسلوب شعرى جميل ، فانما عهدنا أن يتطرق شعراؤنا لهذا الموضوع فى البيت والبيتين ، أو المقطوعة الصغيرة تحتوى خاطرة من خواطر السياسة أو جزئية من جزئيات قواعد تدبير الملك كقول ابن زريق فى عينيته المشهورة :

أعطيت ملكا فلم احسن سياسته
وكل من لا يوس الملك ينزعه

وقول أبى الفتح البستى :

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب

أما ترى الشمس فى الميزان هابطة
لما غدا وهو برج اللهو واللعب

وقول الافوه الاودى من قصيدة :

فينا معاشر لم يبنوا لقومهم
وان بنى قومهم ما أفسدوا عادوا

لا يرشدون ولن يرعوا لمرشدهم
فالغى منهم معا والجهل ميعاد

لا يصلح الناس فوض لاسراة لهم
ولا سراة اذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتنى الا بأعمدة
ولا عماد اذا لم ترس أوتاد

* القى هذا البحث فى الدورة التاسعة والعشرين لمؤتمر مجمع اللغة العربية الذى عقد فى شهر فبراير الماضى 1973

فان تجمع أسباب وأعمدة
به فقد بلغوا الامر الذى كادوا

وقد يتعرض الشعراء لمعانى من هذا الباب فى قصائد المدح ، حين يعدون مناقب ممدوحيهم من ملوك ورؤساء ، فيأتون على أشياء وأوصاف مما يستحسن من سياستهم وتدبيرهم كما فى قول المتنبى يمدح سيف الدولة :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها
وتصغر فى عين العظيم العظائم

يكلف سيف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

ويطلب عند الناس ما عند نفسه
وذلك ما لا تدعيه الضراغم

وقوله فيه عند ايقاعه ببنى كلاب:

ترفق أيها المولى عليهم
فان الرفق بالجانى عتاب

وما جهلت أياديك البوادى
ولكن ربما خفى الصواب

وكم ذنب مولده دلال
وكم بعد مولده اقتراب

وجرم جره سفهاء قوم
فحل بغير جارمه العقاب

أما أن تتمحص القصيدة كلها لهذا الغرض ، وهى من الطوال الجياد ، فتبدىء فيه وتعيد ، ويتفنن صاحبها فى أساليب القول ، من الخطاب الى الغيبة ، ومن المدح الى النصح ، ومن ضرب المثل الى ابراز المعقول فى صورة المحسوس ، مع الالمام بمجمل قواعد تدبير الملك وأصول السياسة ، وتعليلها وبيان حكمتها ، والمحافظة على وحدة الموضوع بحيث لا تخرج عنه ولا تتخبط فيه ، بل تسير على النهج اللاحب والتخطيط الواضح ، فانا لا نجد ذلك الا فى قصيدة انجم السياسة هذه ، التى نقدمها لدارسى

الادب العربى ومؤرخيه ، وتنفض عنه غبار الاهمال والنسيان ، وننشرها كاملة غير مقطعة ، منسوبة محققة ، لا كما نشرت من قبل ضمن احدى المقامات الادبية ، من دون تنويه بها ولا تنبيه على صاحبها كما يتبين مما يأتى :

من هو صاحبها ؟

الحسن والاحسان قد يكونان مصيبة على صاحبهما ولذلك وقع لهذه القصيدة ما وقع لقصيدةالشهاب الاعزازى التى ادعاها فيما قبل سبعون شاعرا ، وهى النونية التى أولها :

صاح فى العاشقين يا لكنانه
رشأ فى الجفون منه كنانه

وقصيدة أنجم السياسة لم يدعها أحمد ممن نسبت اليه ، فيما نظن ، ولكن الناس نسبوها ، حسبما اطلعنا عليه ، الى ثلاثة أشخاص من أهل العلم والادب .

اولهم : صاحبها الحقيقى وهو الوزير أبو محمد ابن المالقى .

وثانيهم : لسان الدين ابن الخطيب الشهير .

وثالثهم : الرئيس ابو القاسم بن رضوان النجارى .

فأما لسان الدين فقد نسبها اليه شارحها محمد بن عبد الله الدمناتى باشارة من ابن عمه الفقيه القاضى الاعدل ابى العباس احمد بن عبد الرحمن الدمناتى القاضوى الذى ندبه الى شرحها نجبل السلاطين الكرام ، سليل سيد الانام مولانا ابو عبد الله هشام ، كما ورد فى طالعة الشرح وصفا للاثنين .

ولاشك أن هذا الامير هو والد السلطان مولاى عبد الرحمن العلوى فالشارح اذن متأخر ، من اهل القرن الثالث عشر . ويقع هذا الشرح فى كراسة ونصف ، لان القاضى المنتدب

له ، الذى وكل المهمة الى ابن عمه المذكور ، أشار عليه بأن يقتصر على بيان معنى البيت واعرابه ، من غير استطراد لما يناسبه من آية أو حديث أو خبر أو غير ذلك ، ولعلها اشارة الامير هشام نفسه الذى كان يهمه فهم ألفاظها وتصور معانيها فقط ، ولذلك قال هذا الشارح . « ولم أستطلع لها ديوانا من دواوين العرب ولا نشرت لاجلها مصنفا من مصنفات الادب الخ » وسمى شرحه بالمواهب الربانية فى شرح قصيدة السياسة السلطانية .

ويظهر أنه لم يكن يعرف أن اسمها أنجم السياسة والالكان سمى شرحه بما يوافق هذا الاسم . كما أنه بدأ بالشرح من البيت الخامس عشر ، وترك الابيات الاربعة عشر التى تتضمن مدح الملك المخاطب بها ، فاما أنه طرحها لعدم اهتمامه بمضمونها ، واما أنه لم يطلع على هذه الابيات لانها تحذف من بعض نسخ القصيدة . وبالجملة فهو شرح مختصرا جدا ، لا يزيد على تفسير الالفاظ اللغوية وتوضيح معانى الابيات بعبارات مفهومة ، وهو ان كان له خطبة ومقدمة ، فقد انتهى بغير خاتمة ، وكذلك لايعرف تاريخ كتابته لا تأليفا ولا نسخا ، وخطه مغربى جميل ، وأبيات القصيدة المشروحة فيه مكتوبة بمداد أحمر ، وهى فى بعض أوراقه لم تكتب ، فبقى مكانها أبيض، والمهم أنه نسب القصيدة للفقيه الاديب البارع الاريب الكيس اللبيب سيدى محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ، على حد تعبيره ، وهذا هو الاسم الكامل للسان الدين ابن الخطيب

والشرح الموصوف يوجد ضمن مجموع خطى لصديقنا الاستاذ البحاثة السيد محمد المنونى ، وقد أعارنى اياه لما علم باهتمامى بهذه القصيدة،

فله الشكر الجزيل .

ونلاحظ (اولا) ان هذه القصيدة لا توجد فى ديوان لسان الدين المسمى بالصيب والجهام والماضى والكهام الذى جمعه بنفسه وأودعه مختار شعره . وهو أو ما يوجد منه على الاصح ما يزال مخطوطا ، ولكن هذه القصيدة ليست من محتوياته .

(وثانيا) ان الذين ترجموا لابن الخطيب وعنوا بذكر آثاره المنشورة والمنظومة ، قديما وحديثا اطلاقا لم يشيروا اليها وأكفاهم وأوسعهم احاطة بهذا الغرض العلامة المقرى صاحب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب فانه استوعب الكلام على التعريف بلسان الدين والتنويه بانتاجه الرفيع نظما ونثرا فى مختلف المواضيع ولم يعرج على هذه القصيدة ولم يرد لها ذكر فى كتابه الضخم ، وهى ليست مما يهمل او ينس لو كانت له ، وكان هو صاحبها فقد ذكر من غرر قصائده ومقطعاته وأبياته الكثير الطيب ، مشيدا بها غير قاض العجب من ملكة ابن الخطيب وشاعريته ، فهل من المعقول أن يتغافل عنها وهى القصيدة العصماء ، والدرة الفريدة ان وقعت له وثبت عنده أنها من نظم ابن الخطيب :

وثالثا : اننا عند تحليل هذه القصيدة والنظر فى أسلوبها ، نجد أن نفسها يختلف عن نفس ابن الخطيب ، ونظمها غير نظمه ، فقد امتازت بالسلاسة والوضوح ، ونزعت منزع العلماء فى ترتيب الافكار وتفصيل الالفاظ على قد المعانى مع الاستشهاد ببعض الحقائق العلمية عند الاقتضاء ، فى حين ان اسلوب ابن الخطيب الشعرى يميل الى الجزالة والقوة وينهج نهج الشعراء فى التخييل والتمثيل ، وهو على العموم يحتاج الى تأمل وبعد نظر فى ادراك معانيه والالمام بمغازيه ، والقصيدة المعنية ليست كذلك .

ولم ينفرد الدمناتى بنسبة قصيدة أنجم السياسة الى ابن الخطيب ،

فقد أخبرنى المؤرخ الكبير الاستاذ محمد عبد الله عنان أنه وقف على مقامة سياسية منسوبة الى ابن الخطيب فى المكتبة الوطنية بالجزائر ضمن مجموع خطى ، وأنه اشتبه فيها لانها لا توجد بين تراث ابن الخطيب الذى نسبه اليه مترجموه ، ومن وصفه الذى وصفها به ، رجحت أنها المقامة المسماة بحضرة الارتياح المغنية عن الراح للقاضى ابن ابى حاتم العائلى المتوفى سنة 815 ، واخبرته انها مطبوعة بتونس سنة 1331 ، ووجهتها له ليقارن بينها وبين المخطوطة المشار اليها ، فاذا هى هى كما أجابنى بذلك بعد اطلاعه عليها

والمقصود ، من هذا أن قصيدة أنجم السياسة ذكرت فى أخر هذه المقامة ، على انها مما أنشده بطلها للملك الذى انشئت المقامة له ، مقتصرا على أربعة عشر بيتا من أولها ، وهى التى يخاطب فيهاصاحب القصيدة الحقيقى الملك الذى قدمت له . وبعد محاورة نثرية بين بطل المقامة وملكها ، توبع انشاد القصيدة الى النهاية .

فمن ورود هذه القصيدة فىمقامة حضرة الارتياح ، مع نسبة هذه المقامة فى بعض النسخ الى ابن الخطيب ، توهم من توهم أنها له كشارحها الدمناتى ، لاسيما وهو يبتدئها بالبيت الخامس عشر الذى استؤنف انشادها منه فى المقامة من غير تفطن الى أولها الذى اقتطع فى ابتداء الانشاد منها . وهكذا تدوولت عند بعضهم ، وتحت يدنا نسخة منها مستقلة ، غير نسخة الشرح ، انما تبدأ بالبيت الخامس عشر « لا يقال انها لذلك تكون من نظم صاحب المقامة القاضى ابن ابى حاتم ، لانا نقول عليه :

اولا ــ ان احدا ممن نقلها أو شرحها لم ينسبها اليه ، واكثر ما نسبها الناقلون لصاحبها الحقيقى أبى محمد عبد الله ابن المالقى ،

ونسبت لابن الخطيب فى بعض النسخ وفى شرح الدمناتى كما مر انفا ، ونسبت لابى القاسم بن رضوان فى شرح مجهول المؤلف كما سنبينه قريبا . وأما ابن أبى حاتم صاحب المقامة ، وان نقلت عنه فيما نظن ، فليس هناك من نسبها اليه ، وبيدنا ست نسخ لها غير النسختين المنسوبة احداهما لابن الخطيب عند شارحها الدمناتى ، والاخرى لابن رضوان عند شارحها المجهول ، وليس فى واحدة منها ذكر لابن ابى حاتم او نسبة اليه ، مما يدل على أن من نقلها عنه ، عرف انه انما أنشدها انشادا ولم يكن هو الذى نظمها .

ثانيا ـ ان اوصاف الملك الذى انشأ له ابن أبى حاتم مقامته ، تباين كل المباينة اوصاف الملك الذى نظمت له القصيدة ، فذاك عربى بين اعجام نشأ نشأة متصابية مستهترة ، ولما أفاق من سكرة شبابه ، التمس من يأنس به من ابناء جلدته ، فحضر لديه وفد من العرب ، هو الذى انشئت المقامة على لسان افراده . والملك المخاطب بالقصيدة على خلاف هذا كله ، كما يفهم من الابيات الاربعة عشر الاولى التى قيلت فى خطابه .

فواضح اذن أن صاحبنا القاضى ابن أبى حاتم انما أنشد هذه القصيدة فى ختام مقامته ولم ينظمها .

أضف الى ذلك أن المقامة كلها كتبت بطريقة الالتزام ، نثرها وشعرها ، فقد كان أفراد الوفد العربى الذى حضر لدى الملك المذكور على عدد حروف المعجم ، وكان كل فرد منه يخاطبه بنبذة من النثر . المسجوع يذكر فيها اسمه ونسبه واسم جاريته مع ضرب مثل فى شأن من شؤون السياسة وتدبير الملك ، ملتزما فى ذلك كله الابتداء بالحرف الاول من اسمه ، ثم ينشد قطعة من الشعر فى التغزل بجاريته، لا تتجاوز اربعة ابيات ، ولكنها تلتزم

نفس الحزف فى أول كل بيت وأخره .. وهكذا جاءت المقامة مثقلة بالصنعة البديعية من اولها الى اخرها ، وليس فيها مما عرى من هذه الصنعة الا القصيدة التى نحن بصددها ، وقطعة شعرية فى أول المقامة هى ولاشك من نظم صاحبها ، وبيتان فى اخرها معروفان اقترح على المؤلف تخميسها الخ . وهذا مما يدل على أن كاتب المقامة حين أورد القصيدة انما كان منشدا لا ناظما لمخالفتها لطريقته ، وعدم شبهها بصنعته .

والى هذا فقد نسبت القصيدة الى شخص ثالث هو الرئيس أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى المالقى صاحب القلم الاعلى فى دولة بنى مرين(1) على ما المعنا اليه سابقا . والذى نسبها اليه صاحب شرح مجهول ، على هذه القصيدة ، يوجد بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ك 932) ولكن الموجود منه انما هو شرح البيت الاول .

ومن العجيب أنه ذكر استقضاء بجبل طارق وامتحانه بالسجن فى فاس ، مدة طويلة ، قال : كما لمح لذلك بقوله فى القصيدة : تفقد السجن .. البيتين . وفى السجن الف ـ كما يقول هذا الشارح ـ تأليفه فى الاعتقال، وذكر فيه مقامات انشأها وهو بالسجن ، ومن جملتها مقامة حضرة الارتياح المغنية عن الراح ، وجعلها مقصدين ، مدح السلطان وبسط الكلام على سياسة مملكته .

وفى مقدمة هذا الشرح كلام نفيس فى مدح العلم والمعرفة وذكر السياسة واصولها ، جاء فى أثنائه قوله : ومن أجل لمعها البارقية ،

---

(1) تنظر ترجمته فى جذوة الاقتباس ، ونيل الابتاج والتعريف بابن خلدون وغيرها .

السياسة المالقية ، فلقد أبدع فيها صاحبها ما شاء ، وميز في فوائدها بين الخير والانشاء ، الا أنها لازالت عروسا في خدرها ، بخاتم ربها من أبى عذرها . الخ .

ويظهر أن هذا الشارح اشتبه عليه أمر رئيس الكتاب ابن رضوان بالقاضى ابن ابى حاتم . فالمعروف أن هذا الاخير هو الذى استقضى بجبل طارق ، وامتحن بالسجن فى فاس ، على حسب ما جاء فى التعريف به على ظهر نسخة المقامة المطبوعة باهتمام العلامة الاديب السيدمحمد بن قاسم البادسى الانصارى الاندلسى الفاسى .. والا فان صاحبنا ابن رضوان لم يذكر فى ترجمته انه ولى القضاء اصلا بجبل طارق ولا بغيره(I) ولاذكر أنه امتحن بالسجن فى فاس ولا فى غيرها فلعل الاشتباه الذى وقع له فى ترجمته ، هو الذى جعله ينسب القصيدة اليه بحكم انها واردة فى المقامة التى هى من تأليف القاضى ابن أبى حاتم ، قاضى جبل طارق الممتحن بالسجن فى فاس على ما ذكرناه مرارا ، خصوصا مع نسبة ابن رضوان الى مالقة ، والقصيدة كذلك منسوبة اليها .

وحيث تبين الخطأ فى ترجمة ابن رضوان ، فان الخطأ فى نسبة هذه القصيدة اليه أبين ، من حيث أن أحدا لم ينسبها اليه ومن حيث شهرة نسبتها الى غيره ، وهو ما نزيده توضيحا فيما يلى :

فبعد استبعاد نسبتها الى كل من ابن الخطيب وابن رضوان ، بقى معنا ابن المالقى ، وهو صاحبها الحقيقى فى نظرنا .

اولا : لان بيدنا ست نسخ خطية

(I) نعم استنيب فى القضاء بفاس مدة كما عند ابن الابار فى مستودع العلامة ولكن النيابة غير الولاية .

غير نسختى الشرحين المذكورين ، أربع منها تنسبها لـــه ، وواحـدة تنسبها لابن الخطيب وهى تبدأ من البيت الرابع عشر ، وقد اشرنـا الى الشبهة فى ذلك ، عند ملاحظتنا على نسبتها لابن الخطيب . والنسخة السادسة غفل عن النسبة .. فأكثر النسخ اذن على انها لابن المالقى .

نعم فى نسختين من النسخ الاربع جاءت النسبة هكذا : للقاضى ابى اعبد الله المالقى ، وفى النسختين الباقيتين لابى عبد الله المالقى بدون وصف القاضى

وصاحبنا ابن المالقى لم يل القضاء كما سيتبين من ترجمته الاتية : وهو أبو محمد عبد الله ، لا أبو عبد الله، ولا يبعد أن يكون وقع فى اسمـــه تحريف او تخفيف ، فصار ابو محمد ابا عبد الله ، ولاسيما وهذه النسخ كلها لم تذكر من أين نقلتها ولا من نقلها حتى نعتمد نقلها فى شىء من ذلك . غاية الامر انها كلها تنسبها لمن ذكر . فأما وصف القاضى فـى بعضها فلعله أتى من عدم التمييز بينه وبين بلديه ومعاصره وسميـه عبد الله بن عبد الرحمن المالقى الذى ولى القضاء لعبد المومن الموحدى وولده يوسف .. هذا ان لم يكن هو نفسه ولى القضاء ولم نطلع على ذلـك .

ثانيا ـ ان وصفهـا بالسياسـة المالقية كما مر فى الشرح المجهـول المؤلف ، وتسميتها بأنجم السياسة.

مما يرجح انها لشخصية سياسية من أهل مالقة ، لا علمية أو قضائية فقط وليس عندنا ممن لعب دورا سياسيا هاما بصفته وزيرا وأكثر من وزيـر فى دول المغـرب ، وهـو مالقى الا صاحبنا ابو محمد ابن المالقى الذى نعتقد أن هذه القصيدة له ، فقد كان بالوصف الذى ذكرناه فى دولة الموحدين أيام عبد المومـن وولده يوسف . والمكانة التى كان يحظى بها لدى هذا الاخير تخوله أن يقول هذه القصيدة ويخاطـب

بها مخدومه الذى كان من أهل العلم والحكمة والسياسة ، وكانت من خاصة العلماء والادباء والمثقفين .

ثالثا ـ قال المراكشى فى المعجب وهو يتكلم على يوسف ابن عبد المومن « ولم يزل يجمع الكتب من اقطار الاندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر ، الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب(1) » وهذا ما يشير له البيت التاسع من القصيدة فى خطاب الملك الذى قدمت له فيما نعتقد ، وهو يوسف ابن عبد المومن. لان فى ايامه برزت شخصية ابن المالقى :

جمعتنا من تفاريق البلاد فلم
يفت لنا أمل الاجمعناه

رابعا ـ جاء فى ختام القصيدة لمحة وعظية مؤثرة تضمنت هذا البيت :

الأشعرية فينا مذهب عجب
ومن سعادتنا أنا اعتقدناه

ولا يخفى ما فى ذلك من الاشارة الى ظهور مذهب الامام ابى الحسن الاشعرى وانتشاره فى المغرب على يد المهدى بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية ، وتقبل الناس له ولاسيما بطانة الخلفاء الموحدين ورجال دولتهم القائمين بدعوتهم وقد كان ابن المالقى من صدورهم واعيانهم ناهيك أنه كان يلى لهم مشيخة الطلبة ، وهو منصب خطير يوازى منصب وزير الدعاية ووزير التربية فى الدول ذات السياسة الموجهة والمذهب الخاص ، فليس من الامور العفوية اذن ذكر المذهب الاشعرى فى القصيدة والنص على أن اعتناقهم اياه من سعادتهم ، فان فى ذلك تلميحا لما كان عليه المغرب من اتباع مذهب السلف قبل

(1) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ص 145 طبعة المغرب .

قيام دولة الموحدين ، وما جاء به ابن تومرت من مخالفة لذلك حتى انه كان يسمى المرابطين بالمجسمين ، وسمى اتباعه بالموحدين لاخذهم بمذهب الاشعرية المؤولين للمتشابه والنصوص الموهمة للتشبيه .

ان هذه الالتفاتة للمذهب والاشادة به ، مما يحل من صاحب الامر محل الرضى والاستحسان . وقد كان ابن المالقي يعرف ذلك ويشعر به تمام الشعور ، بل ربما أوحى به لغيره . يدلنا على ذلك فى الجملة ما جاء فى كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ، وقد أنشد قصيدة للشاعر أبى محمد بن حربون فى تهنئة بوسف بن عبد المومن بوقعة على المخالفين بالمغرب ، فلما أنهاها قال : « قال الفقيه الخطيب أبو محمد المالقي رحمه الله : استحسن الامر ـ أدامه الله ـ

لابى محمد هذه القصيدة حين صاغ فيها المذهب المراد ، وقصد فيها الاقتصاد ، وسبق اصحابه الشعراء القصاد ، وتقرب للآمر العزيز ـ ادامه الله ـ بأغراضه النبيلة فعلا ذكره وشاد(I) .. ولم يكن الغرض المذكور سوى أن يبتدىء الشعراء قصيدتهم بالحمد لله على طريقة الكتابة ، فكيف بمن يتعرض لمذهب الدولة الاعتقادى وينوه به ويذكر أن اعتقاده من السعادة ؟

(1) المن بالامامة ، الجزء الثانى ص 367

خامسا ـ ترجمة ابن المالقى التى تظهر مؤهلاته الادبية وقربه من الخليفتين عبد المومن ويوسف وتقديمهما له ومهمته فى البلاط الموحدى ، هى مما يؤكد أنه المراد عند نسبة قصيدة انجم السياسة لابن المالقى أو أبى عبد الله المالقى على ما قدمنا من تخفيف اسمه أو تحريفه .. وها هى ذى باختصار كما وردت فى التكملة لابن الآبار(1) .

« عبد الله بن محمد بن عيسى الانصارى يعرف بأن المالقى أصله منها وسكن مراكش يكنى أبا محمد، أخذ فى صغره ، عن أبى الحكم بن برجان ، واختلف اليه بقريته من نظر طلياطة من شرف اشبيلية ، ولازمه وبرع فى علمه ، وكان فقيها نظارا خطيبا مفوها ، ذا حظ من الادب وافر ، ونال بخدمة السلطان دنيا عزيضة ، ورأس طلبة حضرته مراكش ، وتوفى بها سنة 574 . عن ابن عمر وقال ابن صاحب الصلاة : توفى سنة ثلاث وسبعين واثنى عليه كثيرا ».

وجاءت فى البيان المعرب لابن عذارى بصورة اكثر تركيزا على وظيفته الرسمية مع وصفه بالمالقى بدون ابن وهذا نصها(2) (وفيها ـ يعنى سنة 573 ـ توفى ابو على بن عزون والقاضى ابو القاسم بن فضيل وأبو عبد الله المالقى شيخ طلبة الحضرة بمراكش ، وكان من اهل العلم والدين والحفظ لحديثرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل عند الخليفة ابى محمد عبد المومن فى حظوة مكينة ، وكذلك عند الخليفة أبى يعقوب ، وكان يرفع له المسائل ، ويتناول توصيل الوسائل ، ويرفع أشعار الشعراء ، واخراج الجزاء ، وتقدم للخطابة والصلاة بأمير المومنين ، واذا وصل

(1) ج 2 ص 486 .

(2) البيان المعرب ج 4 ص 112 .

كتاب فتح أو غيره قرأه الى غير ذلك وكان له أدب غض وشعر فى الزهد ومكفرات (الذنوب) ولم يزل فى عز وتمكين الى أن توفى رحمه الله) .

ومن الجدير بالذكر أن مشيخة الطلبة هذه ، مما احدثه عبد المومن وهى مؤسسة تضم أهل العلم والحديث الذين هم ركائز الدولة ، وبلغت من عناية خلفائه بها وبرجالها ما اثار عليها حسد وجوه الموحدين وزعماء قبائلهم(1) . فلا جرم أن يكون لرئيسها هذه المنزلة الكبيرة فى الدولة .

ومن شاء فليتتبع نشاط رئيسها فى البلاط الموحدى ، وما كان له فيه من الحركة الدائبة ، ايام الخليفتين عبد المومن ويوسف ، بكتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة . ويهمنا ان ننقل منه هذه الفقرة خاصة ، وهى المتعلقة بحوادث سنة 560 ، وهى التى تقول(2) : وفيها اختص الامير الاجل الاعدل بوزارته ابا العلاء ادريس بن جامع وقربه وأحبه وماشى معه الفقيه أبا محمد المالقى فى المسائل « فهى تدل على أنه كان مستوزرا او نائب الوزير الاول .

وعلى كل حال فهذه هى ترجمة صاحبنا ابن المالقى ومؤهلاته التى تجعل منه رجلا كفؤا جديرا بأن تنسب اليه قصيدة أنجم السياسة، ويكون هو ناظمها وناسج بردها ، لا ينازعه فى ذلك احد ممن نحلت له وحملت عليه ، الى أن يظهر ما يخالف ذلك من نقل صحيح وعز وثبات وتوثيق راجح .

نسخها واسمها

وما وقفت عليه من نسخ هذه القصيدة ثمان :

1) نسخة مكتبتنا الكنونية ،

(1) انظر المعجب ص 172 .
(2) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ص 145 طبعة المغرب .

وهى واقعة ضمن مخطوط يشتمل على عدة مؤلفات ، وخطها مغربى واضح ومشكول شكلا صحيحا ، وتحمل هذا العنوان بعد الحمد لله : « وتقع فى خمس صفحات ، ويمكن أن تكون كتبت فى القرن الماضى .

2) نسخة منفردة مجلدة على حدة من محتويات الخزانة العامة بالرباط وهى مكتوبة بخط جميل داخل جداول ملونة وفيّ اولها بعد البسملة والصلاة (ترجمة) كما يعبر الناسخون عندنا أى زخرفة مكتوب داخلها (أنجم السياسة للقاضى أبى عبد الله المالقى) وتمتاز هذه النسخة بطرر وتعاليق مفيدة جدا ، ويمكن أن يستخرج منها شرح للقصيدة ، ويظهر أنها مما كتب فى اوائل هذا القرن ، فهى حديثة جدا ، وتقع فى احدى عشرة صفحة لان بين ابياتها بياضا كبيرا خصص لكتابة ما خفى من الشروح .

3) نسخة تحمل عنوان : أنجم السياسة للقاضى ابن عبد الله المالقى مكتوبة بخط مغربى جميل ، وتقع فى سبع صفحات وهى حديثة كذلك من محتويات الخزانة العامة أيضا

4) نسخة أخرى كتب بها مشبها ما نصه : « وهذه القصيدة لعلها لابى عبد الله المالقى تسمى بأنجم السياسة » وخطها لا بأس به ، وتقع فى أربع صفحات ، وربما كانت مما نسخ فى القرن الماضى ، وهى كذلك من محتويات الخزانة المذكورة .

5) نسخة لا تحمل عنوانا ولا نسبة ، وخطها مغربى جميل ، تقع فى خمس صفحات ، وربما رجعت الى القرن الماضى ، وهى للخزانة العامة أيضا .

6) نسخة تلوح عليها امارة القدم ولكنها لا تتجاوز القرن الماضى ، خطها لا بأس به . وتبتدىء من البيت الخامس عشر ، وتقع فى أربع صفحات ، وبآخرها هذه الجملة .

« انتهت القصيدة العجيبة ، فـــى نصيحة المقلم السلطانى للامام العلامة الاديب البارع لسان الدين ابن الخطيب السلمانى رحمه الله تعالى وجـــدد عليه رحمته بمنه ويمنه ، وحولـــه وطوله » وهى بالخزانة العامة كذلك

7 و 8) نسخة شرح الدمناتى ، ونسخة مقامة حضرة الارتياح وهذه مطبوعة . وسبق الكلام عليهـما . ولعل القارىء قد لاحظ ان بعض هذه النسخ فيها تسمية القصيدة بأنجم السياسة وبعضها خال من التسمية، كما أن الشرح المجهول الذى قدمنـا الكلام عليه سماها السياسة المالفية، ونشير هنا الى أن اسم أنجم السياسة مأخوذ ولاشك من البيت الذى يقول فيه ناظمها :

هاذى (السياسة) لاحت بعض (انجـ ـمها) ما كل نجم رصدناه قصدناه

وبعد فهذا هـو النـص الكامـل لقصيدة أنجم السياسة ، مصححـا مقابلا على جميع النسخ المذكـورة ، ومعلقا على بعض أبياته بما يبيـن المعنى ويعرب عن المقصود ، حيـن يكون التعليق لابد منه :

يـا أيهـا الملك الباهـى محيـاه
أنت الذى تألف الاظعان مغنـاه

أما مقامك فهو الغوث ان قصدت
دار امرىء بحروب الضيم دنيـاه

وجود كفك جود(1) فيه غنية من
قد أجدبت من قوام العيش يمناه

بحسبك(2) النصر من والاك أصبح قد
والآه حبا ، ومن عاداك عـاداه

وما عسى تبلغ الاقوال فى ملـك
الجد ملكـه والجـد والاه(3)

اليم راحتـه والحلـم راحتـه(4)
والامن ساحته واليـمن لقيـاه

---

(1) جود الاولى بالضم الكرم ، والثانية بالفتح : المطر .
(2) فى جميع النسخ فحسبك بالفاء وفى طرة احداها بحسبك بالباء نسخة وهى انسب .
(3) فى جميع النسخ ولاه بتشديد اللام وما اخترناه هو ما فى النسخة الثالثة .
(4) فى النسخة الثانية : عادته .

والمجد منصبه والحمد مكسبـــه ... وكيف يخذل عبد عنـد نائبـــه
والسعد يصحبه والوفد يغشـــاه ... مولى كفته هموم العيش كفـــاه

لو الاقاليم عم الجور سبعتهـــا ... يا سيدا أحضرتنا دار مأدبـــة
واستجدته لجـــلاه وأجـــــلاه ... على موائـــد للاكـــرام دعـــواه

جمعتنا من تفاريق البـلاد فـلم ... لابد من شكر ما أوليت من نعـم
يفـت لنـا أمـــل الا جمعنـــاه ... فالشكر فرض ومن أبـــداه أداه

ونحن ضيف فمن نحلل بساحتـه ... والعبد يعجز عن شيء يوصلـه
ينظر الى أى وصف قد أضفناه(1) ... لشكر مـولاه الا نصـح مـــولاه

وخلف كل فتى منا فراح قطـــا ... لا يمنعنك علـم قـد سموت الى
ما حظهم منك الا مـا جلبنـــــاه ... أعلاه من أن ترى صبـا بأدنـــاه

ثغر ملكت بسيف العدل أقربـه ... والنفس محجوبة عنها سعادتهـا
هلا ملكت بسيب(2) الفضل أقصاه ... فرب(3) ما حقرتـه ليـــس آلاه

ان الملوك على ما غـاب غالبـــة ... ولؤلؤ الحكمة المكنون فـى صدف
بالفضل توليه أو بالهول تغشاه ... خذ ما أتى منه واطرح ما تغشاه

وما على بلد أن لا تحـــل بـــه ... لا تكرهن شرابا حل فى خـزف
ومن يديك وفى الفضل وافـــاه ... ليس الاناء ذاته ما انت تسقاه(4)

× ★ ×

من يقصد المكر بالسلطان ثم يـــــ ... ما الملك الا عقيـــم لاولى لـــــه
ـرى أن الصنائـع تحميه تحامـــاه ... مستهدف للاعادى مـــن تـــولاه

---

(1) يعنى وصف الكرم الذى لاجله يقصده الضيوف .
(2) السيب بالباء العطاء وفيه مع سيف جناس .
(3) فى بعض النسخ لعل مما حقرته وفى الرابعة لعل ما اخطرته ليس اياه .
(4) معناه خذ الحكمة ولا تنظر من اى وعاء خرجت .

فاحفظ بعدل وفضل زور طائره ... لا يعرف الشوق الا من يكابده(2)
فالفضل والعدل ان تنظر جناحاه ... جئنا به مثلا كنا سمعناه

واجف الجفا وتوق الظلم أجمعه ... وفر جنودك بالارزاق توسعها
فليس يسعد الا من توقاه ... فالزرع يزكو اذا وفرت سقياه

ولا تذر دعوة المظلوم سائبة ... وافعل بهم وادعا ما انت فاعله(3)
لاسيما ان يكن من لاله جاه (1) ... فأنت يوم اشتعال الحرب تجزاه

اذا تعمدت انسانا بمظلمة ... وارع الرعية فى ضيق وفى سعة
ولم يجد ناصرا فالناصر الله ... وردهم لطريق الرشد ان تاهوا

وارفع يد العامل العادى الذى كثرت ... ولا تحملهم اصرا ولا رهقا
رت به اليك الشكايا من رعاياه ... فانهم فى اضطراب الحال اشباه(4)

لا قرب الله دار المرء يجعلنى ... ول الرسائل ذا عقل ومعرفة
أبيع من اجله دينى بدنياه ... بالكتب ان كنت للأسرار ترضاه

★ ★ ★

وشاور العلماء المستضاء بهم ... واختره برا سليم الصدر واسعه
فان معذرة السلطان شوراه ... فالمال والروح فى مضمون يمناه

وكل امر له قوم به عرفوا ... وحاجب الملك ان فكرت حاجبه(5)
فاندب لكل مهم أهل بلواه ... فانظر لها كيسا طلقا محياه

---

(1) هذا البيت ساقط من النسخة الاولى والثانية .
(2) هذا صدر بيت سائر وعجزه : ولا الصبابة الا من يعانيها .
(3) اى فى حالة الامن .
(4) فى النسخة الثانية أشياه بالياء وكتب عليها جمع شياه الذى هو جمع شاة يعنى الايالة كالغنم والامير راعيها فاذا حملها ما لا تطيق ضيعها وضاع هو بسبب ذلك .
(5) أى هو له كحاجب العين .

ان قلت بابك معنى فهو لفظته ... لا تسخرن بامر هان أوله
او قلت بابك لفظ فهو معناه ... ان الحريق بقدح الزند مبداه

ول الجباية من قلت جنايته ... استعمل الماجد المرهوب جانبه
فى ماله (1) وربت فى اليسر كفاء ... وحط بالعمل الملحوظ عليه

فطبعه مانع تبذير حاصلها ... فالطرف ان تخل عن قيد قوائمه
وماله راقع تمزيق عدواه ... أزرى بسائسه عدوا فأعياه

أمر على الجيش من ترجو كفايته ... علق بعفوك من يجنى عليك كما
ودع سواه وان ناجتك قرباه ... تعلقت بطبيب الوقت مرضاه

قراية النصر مكتوب بطرتها ... فالضرب(4) للعبد أدنى ما يليق به
بيت على اثر هذا قد كتبناه ... والعفو للحر أعلى ما توخاه

ما للجبال ومالى لست اعرفه(2) ... لا تسفكن دما الا بواجبه
اما الشجاع فيهوانى وأهواه ... فمن اراق دم العدوان ارداه

اجعل لنفسك جاسوسا تفيدك ما ... ولابن عباس الحبر الذى شهرت
يدور فى الناس عيناه واذناه ... علومه مذهب فيه عرفناه(5)

واحذره أن يجعل التعريف مكسبه ... ان أظلم الخطب واعتاصت جليته
وذا التحذر بالاعناء تكفاه(3) ... وأشكلت من طريق العلم فتياه

---

(1) أى مليا غير مسرف فى ماله .

(2) فى بعض النسخ لست نسبته .

(3) يريد اغن المخبر ليلا يجعل وظيفه وسيلة للكسب .

(4) فى أكثر النسخ فالذنب للعبد ، ونسخة الضرب أولى لانها تتضمن معنى تكرر فى الشعر العربى مثل : الحر يلحى والعصى للعبد ..

(5) مذهب ابن عباس فى قاتل النفس ـ انه ـ لا تقبل له توبة اخذا من الاية (ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم) الآية ، ولكن الجمهور على خلافه وحمل الآية على المبالغة فى الزجر .

سلم امورك للرحمن محتسبـــا وزارع الخير من يحببه شاركـه
وأرض القضاء فمن يرضاه أرضاه وزارع الشر من يحببه ســاواه

واصبر فما شدة الا لها فـرج واذكر يتيما ومسكينـا وأرملـة
وراكب الصبر لا تكبو مطايــاه فمن تذكرته فالضر ينســاه (2)

اردع بعدلك من طمت بوائـقـه وامدد يد الخير والرحمى لذى كبر
وارفق بمن ندرت منه خطايــاه دنت خطاه لدهر قد تخطــاه

وادرأ عقوبة من قد ظل مستترا تفقد السجن فهــو القبر ميته
كما اذا احدث السنور غطــاه حى واحياؤه امثــال موتــاه

لا تأمنن مـن الموتـور بائقــة ما كل معتقل بالعدل معتقــل
فما نساء مدى الايـام انسـاه(1) كم ساجن غيره والسجن واتــاه

واعط نفسك حظا من اراحتهــا لا تنكر الظلم ممن دام فى عمل
فالنفس يوحشهـا كد واكــراه فان طول مداه فيــه أطغــاه

★ ★ ★

وان سما لك شوى فى مخــدره واعزل على الفور من اسخطت حالته
او شادن كحلت بالسحر عينــاه ومهملا ول ترضيه وترضــاه

★ ★ ★

فاكتم هواه ولا تظهر محبتــه خزانة الكتب اكثر من ذخائرهـا
فالحب ذل وعز الملك يأبــاه فان أبهـة السلطان ذخـراه (3)

ان السعاية عار فاجف صاحبهـا واجلب اليها دواوين العلوم ومـا
وفر منه فان الله أخــزاه يعد من اغرب التصنيف منحــاه

---

(1) الموتور صاحب الثأر ، والنساء بالفتح التاخير اى أن طول المدة لا تنسيه ثاره .

(2) المراد من تذكرته بالاحسان والمواساة .

(3) كانت عناية الموحدين بجمع الكتب عظيمة وكان لخزانة الكتب عندهم ولاية خاصة لاتسند الا لكبار العلماء ، وانظر ما فعله يوسف بن عبد المومن فى هـذا الـصدد بكتـاب المعجـب ص 144 .

الخط والضبط منها روضة أنف ... كأن ما نحن فيه لم يكن ابدا
مما رواه أخو حذق ورواه ... وما نصير اليه ما فقدناه

فالعلم ان لم يكن في الصدر أجمعه ... تمر أعمارنا مر السحاب ولا
ففي القراطيس كبراه وصغراه ... وقت لنا بسوى الدنيا عمرناه

وكل ما جمعت كفاك من تشب ... تجاذب للاماني ما له طرف
او صامت ولو ان الرمل حاكاه ... كأنما سالمت عبدا منايا ه

بدده في بدد(1) الاعداء عنك وقل ... نبكي على نزر دنيا اذ يفوت ولو
ليوم سوء رفعنا ما جمعناه ... قد فاتنا الدين رأسا ما بكيناه

هاذي السياسة لاحت بعض أنجمها ... نمسي ونصبح من امرين في غرر
ما كل نجم رصدناه قصدناه ... ذنب رضيناه أو حظ سخطناه

نسيم علم تمشى في ربى ادب ... اذا عملنا بأعمال الهوى ثبتت
لو كل وصف وصفناه عصفناه ... وان عقدنا له توابا(4) محوناه

شكرا ونصحا نفضنا منهماجربا (2) ... ولا نصيح الى ما قال واعظنا
وبعض ما قد نفضناه رفضناه ... وان شدانا مغنينا سمعناه

تلك المكارم لا قعبان من لبن (3) ... الدهر بالمرء من اخراه مرتحل
عقل تؤديه اقلام وافواه ... يا حسرتاه ولا زاد لاخراه

اليوم قول وفعل والجزاء غدا ... لا عيشه ها هنا تصفو موارده
ويلاه من لم يفكر فيه ويلاه ... ولا هناك من الاكدار صفاه

---

(1) أى فى تفريقهم .
(2) جمع جراب .
(3) هذا صدر بيت مشهور لابى الصلت الثقفى وعجزه : شيبا بماء فعادا بعد أبوالا .
(4) التوب : قال تعالى (غافر الذنب وقابل التوب) وجاءت فى اكثر النسخ بالثاء المثلثة خطأ .

فكم نغالط بالحسنى نلم بهـــا وما الذى يرتجى من يستعين على
جهرا وأبعد مقـــت السر حسناه اغراض اعداء مـــولاه بنعمـــاه

نخفس القبيح وقد ازرى بحشمتنا للاشعرية فينا مذهب عجـب(2)
والمرء يدرى مسمـاه بسيمـــاه ومـن سعادتنا انـا اعتقدنـــاه

والله والله لولا ءايـــة منعـــت لو كان حتما من الله الوعيد لنا
من القنوط(1) لما كنا رجونـــاه لم يسبق الغضب المكتوب رحمـاه

عبد الله كنون

---

(1) يشير الى قوله تعالى (قل يا عبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله).

(2) مذهب الاشعرية واهل السنة على العموم أن الله عز وجل لايجب عليه اثابة المطيع ولا عقوبة العاصى وان حكم بذلك ـ نعم هو تعالى لا يخلف وعده فى اثابة المطيع واما العاصى فهو فى مشيئته تعالى ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه ، كما قال سبحانه (ان الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ـ وهذا ما يعنيه الشاعر وقد احتج له فى البيت الاخير بمضمون الحديث الصحيح « ان رحمتى سبقت غضبى » ويخالف المعتزلـة فى ذلك اهل السنة فيقولون بوجوب اثابة المطيع وعقوبة العاصى ـ وهو قول مردود لان الله لا مكره له ، والوجوب فى المسالة عرضى لا ذاتى ، اى ليس عقليا حتى يقال انه لا يخلف ـ وقد قال الشاعر :

وانى اذا اوعدته أو وعدتـه لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

دراسة في مصادر التاريخ المغربي

ـ الحلقـة الثانية ـ

بقلم : الدكتور عبد الكريم كريم

هناك مصدر تاريخي هام نرجع اليه للتعرف على أوضاع المغرب الاقصى خلال النصف الاول من القرن الخامس للهجرة : (كتاب المسالك والممالك) للرحالة الاندلسي المعاصر أبي عبيد بن عبد الله البكرى المتوفى عام 487 هـ . ومن حسن الصدف أن الاجزاء التى حفظتها لنا الايام من هذا الكتاب يتعلق قسم هام منها ببلاد المغرب . فما هى أهم المعلومات التى دونها البكرى فى كتابه عن أحداث المغرب التى عاصرها وسمعها خلال الستين سنة الأولى من القرن الخامس للهجرة ؟

هناك أولا وصف عام لبعض المدن المغربية الشهيرة خلال هذا القرن كمدينة (سبته وهى ضفة البحر الرومى ، والبحر يحيط بها شرقا وشمالا وقبلة ولو شاء ساكنوها أن يواصلوه من ناحية الشمال لوصلوه فتكون جزية منقطعة) ومدينة سبتة كبيرة ومسورة بسور ضخم محكم البناء بناه الناصر لدين الله وأهلها عرب وبربر ولم تزل دار علم) . وكمدينة أغمات (وهى مدينتان سهليتان احدهما تسمى أغمات ايلان والاخرى أغمات أوريكا وبها ينزل التجار الغرباء وأغمات ايلان لا يسكنها غريب وبينهما ثمانية أميال) .

لقد تعرض البكرى الى ذكر بعض الامارات المغربية المندثرة وبالاخص

الامارة البرغواطية التى نشأت ببلاد تامسنا ما بين أبى رقراق وأم الربيع والتى استمر وجودها ثلاثة قرون . ونشير الى أن البكرى قد امتاز بوصف دقيق لاحوال هذه الامارة التى اشتهرت ببعض البدع ، مما لا يوجد له مثيل عند غيره من المؤرخين .

ومن جهة أخرى فقد عاصر البكرى قيام الدولة المرابطية فى الصحراء ودون الكثير من مبادىء الامام عبد الله بن ياسين الجزولى ، فحفظ بذلك أخبارا هامة عن الدولة المرابطية وطرق فتحها للمغرب . ففيما يتعلق بمبادىء المرابطين التى أقاموا عليها دولتهم ذكر البكرى : (هذا وان الرجل اذا دخل فى دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا قد أذنبت ذنوبا كثيرة فى شبابك فيجب أن يقام عليك حدودها وتطهر من اثمها . وان علموا أنه قتل قتلوه ومن تخلف عن شاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط) الى أن يقول : (وهذه القبائل هى التى قامت بعد الاربعين واربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضى الله عنه وكان الذى نهج ذلك فيهم ودعا الناس الى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين) .

وفيما يرجع الى فتح المرابطين للمغرب ذكر البكرى فى كتابه ما يلى : (غزا عبد الله بن ياسين أغمات سنة تسع وأربعين واستولى على بلاد المصامدة سنة خمسين وقتل ببرغواطة سنة احدى وخمسين بموضع يسمى كريفلت وعلى قبره اليوم مشهد مقصود . وأمير المرابطين اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر) . وعن أحوال المرابطين الاجتماعية ذكر البكرى (وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه الا محاجر عينية ولا يفارقون ذلك فى حال من الاحوال ولا يميز رجل

منهم ولا حميمه الا اذا تنقب) .

هناك حقائق تاريخية هامة نقف عليها بعد دراستنا لكتاب البكرى هى:

اولا : ان الجيوش الاسلامية الفاتحة للمغرب أيام الامويين قد انطلقت قوات منها نحو بلاد السودان ، وقد تعرف البكرى فى بلاد السودان على عدد كبير من أحفاد هؤلاء الجنود (وببلاد غانا قوم يسمون بالهنيهين من درية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه الى غانا فى صدر الاسلام وهم على أهل دين غانا فهم بيض الالوان حسان الوجوه) .

ثانيا : أوردت بعض المصادر التاريخية أن القضاء على الامارة البرغواطية قد تم على يد المرابطين فى حين أن البكرى قد أكد بأن القضاء على هذه الامارة قد تم على يد امير مغربى هو تميم اليفرينى عام 420 هـ (ولم تزل برغواطة فى بلادها معلنة بدينها ، وبنو صالح بن طريف ملوكها الى أن قام فيهم الامير تميم اليفرينى وذلك بعد عشرين وأربع مائة من الهجرة ، فغلبهم على بلادهم ولم يبق لضلالتهم باقية وجميع بلاد بورغواطة اليوم على ملة الاسلام) .

ثالثا : قد اختلف المؤرخون حول بناء مدينة مراكش وهل تم ذلك فى عهد الامير ابى بكر بن عمر اللمتونى أم فى زمن يوسف بن تاشفين ومن دراسة ما دونه البكرى نؤكد الرواية التى تقول بأن بناء مراكش قد تم عام 462 هـ ، وذلك لسبب بسيط وهو أن البكرى الذى عاصر أحداث المغرب وظهور المرابطين والذى أنهى تأليفه عام 460 هـ لم يتعرض لذكر مدينة مراكش التى يزعم البعض أنها قد بنيت قبل هذا التاريخ .

ومما امتاز به كتاب المسالك والممالك تدوينه معلومات قيمة عن الصحراء

الافريقية وبلاد السودان تتعلق بالنواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كانت عليها هذه البلاد خلال القرن الخامس للهجرة .

لقد برزت مع قيام الدولة المرابطية فى منتصف القرن الخامس للهجرة شخصية المغرب السياسية والحضارية خاصة بعد انضمام الاندلس الى المغرب. وقد تطورت هذه الشخصية وازدادت قوة وشهرة مع قيام دولة الموحدين منذ الربع الثانى للقرن الخامس للهجرة .

واذا كانت الدراسات التى قمنا بها عن مصادر التاريخ المغربى قد أكدت لنا بأن ما لدينا من أخبار يرجع الفضل فى جمع معظمها الى ما دونه المؤرخون المسلمون في الشرق العربى ، فان الوضعية قد تغيرت منذ قيام المرابطين والموحدين اذ ظهر عدد من المؤرخين المغاربة واخذت تبرز بوجودهم الشخصية المغربية فى ميدان التدوين والتأليف التاريخى .

لقد دون هؤلاء المؤرخون أخبار المغرب التى عاصروها وحاول البعض منهم جمع أخبار الذين سبقوهم من المؤرخين الا أن القسم الاعظم مما سجلوه للاسف الشديد ، قد ضاع ولم تصلنا منه الا معلومات قليلة ومتفرقة ، الامر الذى استلزم الرجوع الى المصادر الاسلامية المعاصرة فى الشرق ، خصوصا وأن ما قام به المرابطون والموحدون من توحيد للغرب الاسلامى ، ودفاعا عن ديار الاسلام في الاندلس ، قد أثار اهتمام الكثير من مؤرخى الشرق الاسلامى ودفعهم الى تخصيص أقسام هامة من مؤلفاتهم بأخبار المغرب ، وذلك كما فعل ابن الاثير فى كتابه : الكامل فى التاريخ .

ومن المؤلفات التاريخية التى دونت فى عهد الدولة الموحدية (نظم

الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمن) لابى على حسن بن على المعروف بابن القطان . فقد عاش ابن القطان خلال النصف الاول من القرن السابع للهجرة ، وكان من المقربين للخلفاء الموحدين ، وقد ألف تاريخا عاما للغرب الاسلامي منذ الفتح العربى ، الى أن جميع ما كتبه قد ضاع ولم تحفظ لنا الايام الا اخبار ثلاث وثلاثين سنة ما بين سنة 500 و 533 هـ تحت عنوان (الجزء السادس من الكتاب فى ذكر ما انتهى الينا من أخبار القرن السادس) وهذه الفترة لها أهمية كبرى فى تاريخ الدولة الموحدية ، لانها تتعلق بزوال المرابطين وقيام دولة الموحدين ، وقد حرص ابن القطان على ابراز أسس الدولة الموحدية ودور الامام محمد بن تومرت فى تأسيس الدولة ، دون أن يغفل عن التعرض لاخبار العالم الاسلامى المعاصر فى الشرق الاسلامى وفى الاندلس بوجه خاص .

ومما يستوقفنا فى كتاب نظم الجمان لابن القطان : (التفاصيل التى أوردها عن رحلة الامام محمد بن تومرت الى الشرق الاسلامى طلبا للعلم ، وعن مأخذ المرابطين على الموحدين (فهذه الابواب نسبونا فيها الى الكفر والضلال والخروج من الدين ، فسموا أهل التوحيد خوارج وجعلوهم مبتدعين ونسبوهم الى الخروج من الدين ، فجميع ما قالوا تحريف وتشنيع بل هو بالضد مما قالوه) .

وعن جهاد المرابطين فى الاندلس اورد ابن القطان معلومات دقيقة وهامة، ومعروف أن الموحدين قد استغلوا انشغال المرابطين بالجهاد فى الاندلس لتأسيس دولتهم بجنوب المغرب كما دون تفاصيل دقيقة عن قاعدة (تينملل) التى اتخذها محمد ابن تومرت فى قلب جبال الاطلس الكبير مقرا لدعوته : لا أعلم مدينة مثلها حصينة اذ أنها بين جبلين لا يدخلها الفارس الا من

شرقها وغربها فاما غربها فطريق أوسع ما به ما يمشى عليه الفارس وحده وأضيقه ما ينزل على فرسه خوفا من سقوطه لان الطريق مصنوعة فى نفس الجبل تحت راكبها حافات ، وفيها مواضيع مصنوعة بالخشب اذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد ، ومسافاتها على هذه الصفة نحو من مسيرة يوم وكذلك من شرقها وهى طريق مراكش على الضفة الغربية) .

وعن الحروب والمعارك التى دارت بين المرابطين والموحدين ، أورد ابن القطان معلومات مفصلة قل أن نجد لها مثيلا عند غيره من المؤرخين وقد اهتم فى الوقت نفسه بذكر أخبار الشرق الاسلامى فى بغداد والقاهرة ومقارنتها بأحوال المغرب وخاصة بعد ان استقر الامر للموحدين ، وعلى سبيل المثال : أورد ابن القطان امثلة مفصلة عن اضطراب الخلافة الفاطمية فى مصر وقال : (فانظر الى هذه المحاولات الشنيعة والامور الفضيعة والى تلك الامور على نفسها الى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة لترى ما كان فى الارض من ظلمات المظالم والخروج عن مراسم السنة وحدودها ، وذلك من حين وفاة الامام ابن تومرت الى حين ظهور أمر الموحدين أعزهم الله تعالى ، فتحقق بذلك صدق البشارة النبوية الكريمة بهذه الخلافة الموحدية القوية القائم بأمر الله تعالى واحياء كلمته واعلاء الحق وهداية أمته) .

ومن المؤلفات التاريخية الهامة التى وصلتنا عن الموحدين كتاب : (تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين) للمؤرخ المغربى المعاصر عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى عام 594 للهجرة . فقد عاصر ابن صاحب الصلاة عددا من الخلفاء الموحدين وساداتهم ودون معلومات قيمة عن دولة الموحدين لم تحفظ الايام منها الا اخبار خمسة عشر عاما ما بين سنة 554 وسنة 568 للهجرة .

وتبرز أهمية هذه الفترة فى الاعمال الهامة التى قام كل من الخليفتين عبد المومن وابنيه يوسف سواء فيما يتعلق بتوحيد المغرب العربى أو فيما يرجع الى توطيد الحكم الموحدى فى بلاد الاندلس ورد اخطار الاسبان عنها . فبالنسبة لفتوحات الخليفة عبد المومن بالجزائر وتونس أورد ابن صاحب الصلاة معلومات دقيقة لا مثيل لها :

(لقد ورد كتابان عزيزان يبشران بالفتوح ، الواحد منها مؤرخ بالثانى من ذى الحجة فى عام أربعة وخمسين بظاهر المهدية ، والكتاب الثانى الجامع لجميع أشتات الفتوح والامانى مبشرا بفتح مدينة المهدية فى يوم عاشوراء فى عام خمسة وخمسين وخمسمائة ، وتاريخه بيوم عاشوراء ، ولما فتح الله مدينة المهدية بتيسيره الغريب جلس امير المؤمنين الخليفة للموحدين اجمعين مجلس التهنئة والشكر لله تعالى على ذلك) . ثم يصف ابن صاحب الصلاة وصول الخبر الى الاندلس وكيف أقيمت الفرحة الكبرى لذلك (وكان وصول هذا الكتاب الكريم الى اشبيلية فى شهر صفر من عام خمسة وخمسين وخمسمائة فأمر الامير ابو يعقوب بقرع الطبول وأطعم الموحدين والناس كافة وخاصة من أهل اشبيلية والاجناد مدة ثلاثين يوما) .

وعن جهاد الموحدين بالاندلس أورد مؤرخنا الاخطار التى أصبحت تهدد المسلمين فى هذه البلاد من جراء تزايد الهجومات المسيحية وبسبب تعاون أمراء الطوائف مع الاسبان مما أجبر الامير يوسف بن عبد المومن ونائب الخليفة فى الاندلس الى الاستنجاد بأبيه . ويمكننا القول بأن خطورة الوضعية فى الاندلس كانت من الاسباب الرئيسية التى دفعت الخليفة عبد المومن الى التوقف عن فتوحاته والعودة منها الى المغرب لتهييء أمر الحملة ضد الاسبان فى الاندلس . وقد فضل ابن صاحب الصلاة القول فى الترتيبات الى أمر

الخليفة باتخاذها سواء في الاندلس او في المغرب استعدادا للجهاد في الاندلس : فقد أمر الخليفة عبد المومن ابنه يوسف ببناء قاعدة عسكرية في جبل طارق (لتكون هذه المدينة منزلا للامير عند اجازة العساكر المنصورة) ومحلا ريثما تتقدم الرايات المظفرة والاعلام المنشورة الى بلاد الروم) .

وقد أنجز الموحدون بناء المدينة التي جاءت كما وصفها ابن صاحب الصلاة فريدة من نوعها (وأحكم البناؤون فيه بناء من القصور المشيدة والديار واخترعوا في أسسها طيقانا وحنايا لتعتدل بها الارض مبنية بالحجر المنجور مما هو عجيب في الآثار . وجبل طارق هذا شريف البقعة كريم التربة باسق مع أعنان السماء وكل ما زرع في أرضه في البطحة المنبسطة في بعضه نما وزكا . وكان يعيش المهندس مدة اقامته للبناء قد صنع في أعلاه رحى تطحن الاقوات بالريح . وهكذا أصبح جبل طارق معقلا حصينا لا يتمكن لطامع فيه طمع ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع من بر ولا بحر) .

ومما انفرد به كتاب (المن بالامامة) التفاصيل التي أوردها عن الاجتماع الذي عقده الخليفة عبد المومن وحضره كبار القوم من مدنيين وعسكريين برباط الفتح قبل القيام بالجهاد في الاندلس (خرج أمير المؤمنين من مراكش ووصل رباط الفتح فجمع أشياخ الموحدين أعانهم الله وأشياخ العرب وأشياخ القبائل أهل الحروب ممن تعودوا الغزوات من أهل الرأي وأكابر القواد وقال: أشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة الى بلاد الروم فقد عزمنا عليها برا وبحرا ، وقال ان العساكر والحمد لله وحده على ما ترون من وفرة الاعداد وظهور الاستعداد وطريق واحد لا يسعهم فقولوا رأيكم ؟) ثم يذكر المؤلف كيف أجمع الحاضرون الرأي على مهاجمة الاندلس من الجهات الاربع ، الا أن وفاة الخليفة عبد المومن المفاجئة هي التي حالت دون ذلك .

ومما تميز به كتاب (المن بالامامة) لابن صاحب الصلاة أخيرا وقوفه عند مدينة الرباط حيث دون معلومات دقيقة ومفصلة عن تاريخ هذه المدينة وعن الاهمية التى أصبحت لها أيام الموحدين :

(وموضع هذه المدينة المسماة الآن بالمهدية وبرباط الفتح كان فيه برج للسكنى وما حوله أراض للزراعة والرعى ، فاشتراه الخلفاء من أربابه وكان أهل الاثر يقولون فى ذلك التاريخ : سيكون فى هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة . فلما وصل أمير المؤمنين الخليفة عبد المومن الى سلا عام خمسة وأربعين وخمسمائة لاستطلاع أحوال الجزيرة أمر ببناء قصبة حصينة فى ذلك الموضع على فم البحر الداخل الى سلا وأقام بمحلاته على عين غبولة والفعلة والمهندسون معه .فأجروا لها الماء من عين غبولة تحت الارض فصارت فيها البحائر والجنات المغروسات . ثم اتصل الامر العزيز بسكناها بالناس وببناء الديار حواليها والاسواق . ولم يزل الخلفاء يخصونها بالاهتمام ويجعلون لها حظا وافرا من التشريعات لها بالاختصاص فيها والمقام حتى غدت عراقا ، وتلا حق الناس بها لحاقا وأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا (يعنى الخليفة يوسف بن عبد المومن) هو الذى مصرها ومهدها وابتدأ بناء أسوارها) .

عبد الكريم كريم

الشعر القديم و الالتزام

بقلم : الدكتور جعفر الكتانى

يقول بعض المتذوقين لفن القول بأن الشعر العربى فى العصور الاسلامية كان شعر المناسبات وبأنه فى غالب ما عرف منه شعر ماجور يقرضه الشاعر لخدمة سيده الذى يكافئه على عمله بقدر ما يتحقق منه من خدمة وطاعة وامتثال ويقصد هؤلاء الناس حينما يشيرون بهذا الى الشعر القديم شعراء مشهورين كبارا وصغارا ، وليس ابو الطيب المتنبى أو أبو تمام الا مثال على مرحلة طويلة من عمر التكسب بالشعر فى تاريخ الادب العربى ويقولون بأن علة ذلك فى هؤلاء الادباء الذين يوصفون بأنهم ممعيون هى أن الشعر لم يكن يزيد على كونه حرفة تتخذ وسيلة للكسب مثلها فى ذلك مثل من يبيع بضاعة فى دكان لايتركها الا بثمن والشعر من هذا الصنف كان لدى اولئك القوم ـ حسب ما يراه بعض متذوقى الادب اليوم ـ يجودون منه كما يجود التاجر من عرض بضاعته ومن اختيار نوعها كذلك كان الشاعر ـ فى رأى بعض متذوقى الادب اليوم ـ ينتقى كلماته وأوزانه وتشبيهاته بحسب ما يتوقعه من ربح زائد وكسب موفور ، وليس من همه أن يرضى الحقيقة ولا أن ينصف الواقع . ولذلك فان جرير الشاعر مجرد ظاهرة لعبد الملك بن مروان وكذلك أبو نواس فانه صنيع هارون الرشيد ، ويعتقد هؤلاء أيضا بأن أبا تمام نفسه بكل بديعه وعطاياه الفنية انما هو من هذه الزمرة والفضل فى وجوده يرجع للمعتصم . وهكذا فى شرعه بعض متذوقى الادب

يمكن ارجاع كل ادباء العصرين الاموى والعباسى الى الأكف المفتوحة التى كان ينعم منها الشعراء يومئذ ويهبها السادة ابان ذلك الزمان .

وهذه احكام لاشك فى انها ذات خطورة بالغة على تاريخ الادب العربى . فهى تترصد أحفل مراحل الادب العربى فى تاريخه الطويل لتفرزه ثم بعد ذلك لتدمغه بطابع التكسب ، وما يتبع طبيعة التكسب ـ فى العادة ـ من الارتجال والخواء من الفن ومن انعدام الضمير وخراب الذمم فى الخلق وهما خلتان اذا صح لصوقهما بالشعر والشاعر العربيين فى عصرى بنى أمية وبنى العباس أو فى أى عصر آخر فانهما يفرغان الادب من مدلوله ويطبعانه بالسلبية والفجاجة وهما كذلك صفتان اذ لزمتا ادبا فانهما تفرغانه من أنموذجيته فى اية دراسة يتعرض لها .

ومن هنا كان بعضهم ـ ولاسيما من الجيل الجديد ـ يشيح عن الشعر القديم ويدعو الى تحوير فى المناهج .

ولاشك في أن من ينظر الى الشعر العربى القديم بهذا المنظار انما هو باحث عن الالتزام ، ويريد من الشاعر العربى القديم ذلك الرجل الذى يعالج فى ادبه قضايا قومه ومسالكها . لأن الأدب يظل عاريا عن البقاء فى تصور من يهدف الى الادب الملتزم .

والحقيقة ان الالتزام بهذا المفهوم ليس مذهبا قديما فى الأدب وليس يفهم من مناقشات اليونانيين للأدب والاخلاق أو الأدب للأدب هذا المعنى المتطور الحديث لمعنى الالتزام .

لأن الالتزام بمعناه الحديث أوجدته مصلحة الجماعة وقضايا الشعوب

ولو لم تكن ثمة جماعة نظامية فى وطن ، وشعب قائم بذاته يستدعيان أدبا وأدباء لما كان البحث فى الأدب يستدعى حين نقده فى مثل هذه البيئات التزاما بقضايا معينة . اذا لكان الأديب ينشىء وفق قضاياه هو . وليس هذا امرا خاصا بالأدب العربى فقد عرفته الشعوب القديمة جميعها حيث كان الأديب يعيش من أدبه فى مجالس السادة على ان يصرف أدبه فى خدمتهم ولم يكن هنالك لوم على الأديب لأن أحدا لم يستنجد بأدبه فيرفض هو مساعدته ، لم يكن هنالك وحدة جماعية تدعى شعبا ، وتشكو جماعيا من قضايا تحتاج الى من يعالجها . صحيح ان آلام الافراد لا ينقطع فى كل بيئة ، وأن الأديب الحق من يعالج قضاياه مع قضايا الآخرين ولكن الى أى حد كان أدب الاقدمين من غير العرب يعالج قضايا الآخرين .

لقد كان الشعر فى العصور القديمة مسخرا للمصالح الفردية ، مصالح ذويه ؛ وحتى الاقاصيص والملاحم التى تروى لآداب أخرى غالبا ما يكون مبعثها فى نفس المنشىء آلامه أو آماله الخاصة .

وان الشاعر العربى القديم كان بدوره هو أيضا يعزف عن قضاياه الخاصة الى قضايا غيره حينما تبلغ حساسيته بتلك القضايا الغيرية حساسيته بذاته . والامثلة على ذلك متوفرة فى شعر الوصف العربى وحتى فى شعر المديح حينما يتحول المديح الى قضية جماعية. ويتجلى ذلك فى شعر ابى تمام وهو يصف نعم المعتصم على أراضى الاسلام وأمن المسلمين بعد عمورية ، كما يمكن تجليه من شعر أبى الطيب المتنبى فى سيف الدولة ولسنا نريد من هذه الامثلة ان نعكس ما يقال تنقيصا ، بجعله مصدر ثناء ، فالواقع يؤكد بأن الشعر العربى القديم وكثير من الحديث أيضا لم يكن يهتم الا بمشاكل اصحابه ، ولسنا نفهم لذلك تفسيرا الا فى

ان النظام الاجتماعي نفسه قد تغير وتطور وكما حول النظام الحديث للمجتمع طبيعة الاهتمام بوظيفة الشعر في الأدب العربي لدى متذوقيه المحدثين فان هذا المجتمع الحديث نفسه من صرف التركيز على الشعر الى انتجاع الفن القصصي في الأدب الحديث .

وبالاستنتاج من ذلك فانه لم يكن ثمة ضير على الشعر القديم حينما لم يكن يهتم بقضايا المجتمع وذلك لأن بيئته وظروفه غير البيئية والظروف التي دعت الى ذلك اليوم .

ولكن الى أي مدى تنطبق صفة الالتزام على فن القول اليوم في الأدب المعاصر ؟ ان السوق التي كان يروج فيها أدب العصور السالفة هي سوق السادة الكبار فكان ذلك من جملة الاسباب التي جعلت الشعر قديما يخدم قضاياهم . وان السوق التي تستهلك الأدب المعاصر حديثا انما قوامهـــا الجـماهـيـر .

فهل يصح القول بأن فن القول العربي قديما وحديثا انما يخدم بيئته وبذلك نتلخص من الاحكام الظالمة للشعر العربي القديم !؟

جعفر الكتاني

في الديبلوماسية المغربية

بقلم : حسن السائح

تمهيد :

لست أقصد بهذا البحث أن أساير مراحل الديبلوماسية المغربية عبر تاريخ هذه الحقيقة اذ ان موضوعا كهذا يحتاج الى مجلدات وهو يدخل فى اختصاص المهتمين بتاريخ السياسة الخارجية ومايتعلق بذلك من وثائق سياسية واقتصادية وحربية وثقافية ، وانما أريد بهذا الحديث المقتضب أن أعلل بعض المواقف ، وأشرح بعض الاختيارات وأفسر بعض الغموض .. ورغم ما احرص عليه من تركيز فانى أجدنى مضطرا الى اثارة بعض القضايا الجانبية حتى يكون الاطار واضحا وتكون الفكرة بارزة .. ولعل أول ما يعترض الباحث وهو أن يحاول عرض الديبلوماسية المغربية منذ القرن السابع عشر أن يشير الى اطارها الاسلامى الذى كانت تصدر عن توجيهاته وان يعطى عرضا عن تسلسل هذا الاطار داخل المغرب مما طبعه بشخصيته العربية الاسلامية .

الاطار الاسلامى :

لقد كان التأثير الاسلامى بارزا فى مفهوم الديبلوماسية المغربية ، وهو تأثير يبدو واضحا فى الالتزام الاخلاقى ، وعرض الفكرة دون لبس أو اشارة ، وانتقاء اللفظ اللبق لتبليغها هادفة الى احقاق الحق ، ودفع الباطل ، والوصول الى السلم،

دون التعرض لخوض ويلات الحروب وآفاتها ، لذلك كانت الدعوة بالتى هى أحسن ، ومجاملة المتحدث أساسا للمفهوم الديبلوماسى ، ثم كان من عمل الرسول فى بعث سفرائه الى عدة أمم فى عصره ، ليبلغوا دعوة الاسلام أساسا ثانيا من الاسس التى اعتمدتها الديبلوماسية الاسلامية ، وجاءت شروح اضافية عن ذلك فى عدة كتب اسلامية أهمها ، رسالة الصحابة لابن المقفع والاخلاق لابن مسكوية وسراج الملوك للطرطوشى ، ومقدمة ابن خلدون ، وكتاب ابن الازرق ، وكتاب الماوردى ، والفخرى وغير هؤلاء .. وقد اعتمد هؤلاء جميعا على أصول ثقافية اسلامية ترتكز على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فقد تحدث علماء الحديث عن السفارة فى الاسلام ، وطريقة اختيار السفير وشروطه وأعماله ، وهم يعتمدون على الاحاديث العديدة فى الموضوع ، والتى قيلت عندما كان الرسول عليه السلام يختار من اصحابه من بعثه الى قيصر ، والنجاشى والمقوقس وكسرى وغيرهم من أقيال العرب وامرائهم فى ذلك العصر ، واستنتجوا من اقوال الرسول آراء وتوجيهات فى الموضوع ، وعقدوا لذلك فى كتب الحديث والسيرة فصولا مطولة ... ومن ذلك اشتراطهم ان يكون السفير موفور العقل طليق اللسان ، قوى الحجة ، مقنعا للخصم ، حسن الوجه .. دائم الابتسام ، وقسموا السفارة لانواع كثيرة ففيها سفارة للتبشير بالدعوة على غرار ما نسمع اليوم من سفارات للود والوفاق ، وفيها سفارة للصلح بعد الحروب أو لاعلان الحرب ، وسفارة الهدايا التى يقدمها السفير تأنيسا للجو ، وما يتصل بعمل السفراء من تراجمة وما يشترط فيهم ، ويذكر السهيلى فى الروض الآنف أنه لما قدم تحية على قيصر ، قال : يا قيصر ارسلنى من هو خير منك والذى أرسله هو خير منه ، ومنك ، قال : هات ، قال : هل تعلم أكان المسيح يصلى ؟ قال : نعم ، قال : فانى أدعوك الى من كان المسيح يصلى له ، وأدعوك الى من

دبر خلق السماوات والارض والمسيح في بطن أمه ، وأدعوك الى هذا النبى الأمى الذى بشر به موسى وبشر به عيسى ابن مريم بعده ، وعندك من ذلك آثاره من علم تكفى عن العيان ، وتشفى من الخبر ، فان أجبت كانت لك الدنيا والآخرة ، والا ذهبت عنك الآخرة وشوركت فى الدنيا . وفى (الروض أيضا) ان حاطبا لما قدم على المقوقس ملك مصر قال له : انه قد كان رجل قبلك يزعم انه الرب الاعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك ، قال هات ، قال : أن لك دينا لن تدعه الا لمن هو خير منه ، وهو الاسلام. وقدم السفير الثالث العلاء بن الحضرمى على المنذرين ساوى بكتابه (الرسول) قال له : يا منذر ، انك عظيم فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة ، ان هذه المجوسية ليس فيها ما تكرم العرب .. الخ

أما عن السفير عمرو بن العاص فانه لما قدم على الجلندى قال له : يا جلندى انك وان كنت منا بعيدا ، فانك من الله غير بعيد ، ان الذى تفرد بالخلق أهل أن تفرده بعبادتك، وان لا تشرك به من لم يشرك فيك، واعلم أنه يميتك الذى احياك ، ويعيدك الذى بدأك ، فانظر فى هذا النبى الأمى الذى جاء بالدنيا والآخرة فان كان ما يريد به منا فاتبعه ، أو يميل به هوى ، فدعه ، ثم ينظر فيما يجيء به يشبه ما تجيء به الناس فان كان يشبهه قبله العيان وتحيز عليه فى الخير ، وان كان لايشبهه فاقبل ما قال وخف ما وعد . وأما السفير شجاع بن وهب فلما قدم على جبلة بن الايهم ، قال له يا جبلة ان قومك نقلوا هذا النبى الأمى من داره الى دارهم (يعنى الانصار) فأووه ومنعوه ، وان هذا الدين الذى انت عليه ليس بدين آبائك ، ولكنك ملكت الشام وجاورت بها الروم ، ولو جاورت كسرى لدنت بدين الفرس لملك العراق ، فان اسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وان لم يفعلوا كانت لهم الدنيا ولك الآخرة

وكنت قد استبدلت المساجد بالبيع والاذان بالناقوس والقبلة بالصليب وكان ما عند الله خير وابقى .

وذكر السهيلي عن المهاجر بن ابى امية لما قدم على الحارث قال يا حارث انك كنت أول من عرض عليه المصطفى نفسه فخطأت عنه وأنت أعظم الملوك قدرا ، فاذا نظرت فى غلبة الملوك فانظر فى غالب الملوك ، واذا سرك يومك فخف غدك ، وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها وبقيت اخبارها ، عاشوا طويلا وأملوا بعيدا وتزودوا قليلا ، منهم من أدركه الموت ومنهم من أكلته النقم ، وأنا ادعوك الى الرب الذى ان اردت الهدى لم يمنعك ، وان ارادك لم يمنعه منك أحد ، وأدعوك الى النبى الأمى الذى ليس شىء احسن مما يأمر به ولا أقبح مما ينهى عنه .

وفى صبح الأعشى ذكر للجدل بين هؤلاء السفراء ومن اعتمدوا لديهم . فان النبى لما بعث حاطب الى المقوقس صاحب مصر وبلغه كتاب النبى (ص) قال له ما منعه أن يدعو على فيسلط على ، قال له حاطب ما منع عيسى أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل ويفعل ، فوجم ساعة الخ.. ويروى أنه حين سأله عن أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى حروب قومه وذكر له أن الحرب تكون بينهم سجالا تارة له وتارة عليه ، قال له المقوقس النبى يغلب ، فقال له حاطب فالاله يصلب ! (يشير بذلك الى ما تزعمه النصارى من أن المسيح عليه السلام صلب مع دعواهم فيه انه الاه .. ومن هذه المحادثات السفارية يظهر تاريخ الديبلوماسية فى نشر الاسلام عن طريق الرؤساء وهو جانب لم يدرس بعد دراسة منهجية ..

هذه هى المبادىء الرئيسية للديبلوماسية الاسلامية التى أثرت ان لم نقل استوحت منها ديبلوماسية المغرب كل عناصرها الحيوية . وهى كما يلاحظ من خلال هذا التقديم المقتضب تعتمد الاسس الاخلاقية ، والايمان بالقيم الانسانية ، ومحاولة التأثير بالوسائل السلمية والمنطقية

دون لجوء الى الخداع والمخاتلة والميكيافيلية وغير ذلك ، مما شاع من وسائل انتهازية وسطحية واستغلالية فى أساليب الدبلوماسية المعروفة عند كثير من الامم . كما انها تلح فى اظهار سماتها الحقيقية دون أن تغرى أحدا اذ أنها تؤمن بأهداف ديمقراطية سليمة ، وبالاخلاق الانسانية المتعالية ، التى لا تقر الطبقية ولا اللونية ولا التفاضل بين الناس الا على أساس المكاسب الانسانية الشريفة . لقد كان من اللازم أن أعرض لهذا الجانب ولهذا الاطار السفارى لأنه كان ذا أثر فى تكوين شخصية السفير المغربى الذى كان يحفظ الاحاديث الرسولية ويعيها ، ويتخذ هؤلاء السفراء قدوة له بل ان فى مذكراتهم وأقوالهم ما يدل دلالة قاطعة أنهم يستوحون المنهاج الاسلامى فى أقوالهم وأفعالهم وهذا يفسر كثيرا من المواقف الديبلوماسية فى تاريخنا المغربى ، فهى مواقف يطبعها السلام والاعتراف بالحق ، ودحض الباطل واجتناب الكذب والنفاق . ولهذا نرى فى رسائل السفراء وأجوبتهم الى الحكومة المركزية عرضا صادقا لما يجدونه فى الخارج وتوجيه الحكومة الى اقرار هذا الحق وابطال هذا الظلم اذا كان هناك أثر لذلك .. كما نلاحظ فى أقوالهم وتصرفاتهم اعتزازهم بالفكر الاسلامى وسلوك المسلمين ، واستخفافهم بما يلاحظون فى عدة بلاد من اقرار للباطل ودعم للخرافات والشك فى البديهيات، ولاشك ان الثقافة الاسلامية كانت دائما أساسا لهذا الاتجاه فى الديبلوماسية المغربية التى ظلت نشيطة مثمرة حتى ابطلها نظام الحماية .

لقد كانت الديبلوماسية المغربية احدى الجوانب التى أعرب فيها المغربى عن كفاءته وأكد وجود شخصيته واتجاهاته .. ولم يكن المغرب الديبلوماسى منعزلا ولامنكمشا وانما فرض عليه الاستعمار الانكماش والانعزال ؛ ولكن رغم ذلك استمر لآخر لحظة من استقلاله وهو يتحدث

فى المؤتمرات الدولية ويبعث سفراءه الى مختلف الدول ، بل كان يخط للديبلوماسية الدولية ويشارك باتجاهاته الخاصة ذات الميول الحيادية الايجابية والاستفادة من كل القوى العالمية دون الذوبان فيها أو الانزلاق عن الخط المستقيم ..

واصبحت الدبلوماسية المغربية ذات تقاليد عريقة استمدت اصولها من مبادىء المعاملات الاسلامية مع الجيرة ، ومختلف الشعوب ، ولم تكن مجرد مواقف ارتجالية ينقصها التمكن من الموضوع والثقة فى النفس . وان من يرجع الى مقدمة ابن خلدون وبدائع السلك ، وسراج الملوك ، وصبح الاعشى ، والمؤرخ ابن زيدان ليرى أسس المبادىء الدبلوماسية فى المغرب .. كما أن من يرجع الى الرحلات السفارية كرحلة الغزال ، ورحلة ابن عثمان ، ورحلة الزيانى وغيرها من الرحلات ليرى كذلك بوضوح الدبلوماسية المغربية وتقاليدها واهدافها .. كما نلاحظ تطورا فى صقل التقاليد وتناسقها مع الواقع المغربى ، وواقع العالم .

وفى هذا المجال سأحاول القاء نظرة على جانب من الدبلوماسية المغربية عبر التاريخ .

نعم ان كثيرا من المؤرخين المعاصرين يرون أن المغرب عاش منكمشا على نفسه ويبررون ان هذا الانكماش نتيجة لموقعه الجغرافى ، حيث يحاصره جبال الاطلس جنوبا، والبحر الاطلسى غربا والبحر المتوسط شمالا ، وفيافى الصحراء جنوبا .

بل يجعلون المغرب امتدادا للموجات المتدفقة عليه من الشرق ، والتى تتلاشى فى رحابه تلاشيا ركوديا .. ولكن عدم التقصى الذى يسيطر على هؤلاء المؤرخين ، وانعدام الحيوية هو الذى اوحى الى معظمهم بهذه الآراء الخاطئة ، فتناقلوها خلفا عن سلف دون تمحيص ولا نقد . والواقع عكس هذا ، فموقع المغرب

الجغرافي اتاح له فرصة هضم الافكار والنظريات وتحدى الطبيعة التي تحول بينه وبين الاتصال بمختلف الاقطار ، فقد عبر المغربي البحر والصحراء ولذلك عرف امريكا قبل كرستوف كلومب ، وهل وصل اليها الفنيقيون والمصريون القدماء ـ كما يقال اليوم ـ الا عن طريق المغرب وعن مغامرة رحلة حانون القرطاجي ؟ بل عرفت امريكا قبائل من مطاطة ذات وحدة سلالية مع قبائل مطماطة المغربية ، وكذلك عرف المغرب منذ عهد الفنيقيين والقرطاجنيين والرومان صلات مع مختلف بلاد العالم القديم . كما تحدى الصحراء جنوبا الى ادغال افريقيا بحيث كان نهر النيجر مأوى المرابطين ومقام عبد الله بن ياسين دفين ضواحي الرباط وتنقلت جماعة من قبائل زجراجة الى جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر . فهل كان المغرب منكمشا على نفسه ؟ وعندما نقلب وثائق التاريخ نجد انفسنا أمام المصادر عن ماضي الدبلوماسية المغربية . ونجد انفسنا امام مئات الديبلوماسيين والسفراء المغاربة ، كما نجد عشرات الابحاث والتقارير التي كتبها سفراء الغرب والشرق عن المغرب وسياسته ، ولو اردنا أن نعرف القليل لكان علينا أن ندرس كل ما في خزائن القاهرة ودمشق وبغداد وفي صبح الاعشى ذكر العديد من هذه الوثائق . أما في الغرب فتحتفظ خزائن باريس ولندن وغرناطة ومدريد وروما والفاتكان ولشبونة وغيرها من العواصم التي ماتزال تحتفظ بالوثائق المغربية . واذا كان بعض الغربيين كتبوا عن السفارات المغربية ، فان هؤلاء كتبوا بروح اجنبية ينقصها التعمق والنزاهة وبعد النظر . وتنقصهم الروح المغربية التي تعين على تفهم النص ودلالة المجاز وتحليل الموضوع مع النزاهة في الحكم ، ويضاف الى اخطائهم عدم اطلاعهم على مصادر الدبلوماسية المغربية وكتب الفتاوى والفقه وغير ذلك ..

والذي لاجدال فيه ان المغرب

عرف ديبلوماسية منذ عهد يوغرطا وماسنيسا ويوبا ، وان الاسلام بما اضفى على حضارة المغربى من رقة الطابع وحسن الجوار ، والدعوة بالتى هى احسن حيث استمد ذلك من روح الاسلام وسيرة الرسول مع رعاية لأصول السفارات والآداب السلوكية للسفراء ، كل ذلك نمى فى المغربى لباقة الديلوماسى ؛ وثقافته ووعيه . ولذلك فبين ثنايا كتب التاريخ والفتاوى فى المغرب مئات السفراء من امثال ابن العربى وابن الوزير ، وابن عثمان والغزال ، وابن عائشة ، وغيرهم كثير من هؤلاء السفراء الذين ادوا رسالتهم ، فأحسنوا اداءها ،

ولابد أن نذكر ما عسى أن يكون منسيا عند المؤرخين المعاصرين ... فالمولى ادريس الازهر بعث الى الامبراطور شارلمان سنة 801 سفيرا واذا كان المؤرخون يتحدثون عن سفير هارون الرشيد الى شارلمان فهم لا يذكرون أن الوثائق الملكية بفرنسا تذكر أن سفيرا جاء من (فوساتوم) أى (فناس) فى عهد شارلمان وقد يرى بعض المؤرخين أن هذا السفير ورد من الامير ابراهيم الاعليبى ، وهو لا يوجد من امراء الادارسة . فان الواقع أن الدولة الادريسية المغربية مجهولة ولا نعرف منها الا اخبارا ضئيلة تنقل عن طريق الرواية .

وكانت الاندلس فى هذه الحقبة وهى تتاخم البلاد الأوربية تبعث بسفرائها الى عدة عواصم غربية من أهمها سفارة الشاعر الاندلسى (الغزالى) الى البلاد الانجليزية ، حيث يرون فى مذكراته التى تناقلتها كتب الادب والتاريخ الاندلسى كثيرا من غزلياته فى اميرات شقروات أعجب بحسنهن وأعجبن بذكائه ودماثة اخلاقه ... اما فى المغرب فان المرابطين طبعوا سياستهم فى الداخل والخارج بكثير من جدية الفقهاء ولذلك فقد اختاروا سفراءهم من اعلام الفقه كابن العربى المعافرى

الذى سافر لهم الى بغداد لتنسيق الجهود بين المشرق والمغرب لـــرد العدوان الصليبى وجـــاء الموحدون الذين ورثوا رسالة المرابطين ، فتلقوا سفراء من المشرق فى عهد صـلاح الدين الايوبى الذى اسنجد بأسطول المنصور الموحدى لمقاومة الغزوالصليبى ولا نتعرض بتفصيل لهذا الموضوع الذى يحتاج الى كثير من الشـــرح لتبيان وجهة نظر المغرب فى هذه القضية بالضبط .. كما بعثوا الى بلاط (فردناند) بالسفير ابن الوزير وابـى العـلاء بـن زعـــزون ، والى البابا (انوصانت) بسفير آخر اليه .. وقد كانت المماليك الاوربية تنظر الى المغرب بكثير من التقدير بعد انتصارات المرابطين والموحديـن فى الاندلس وفى تاريـخ صقليـــة نجد (روجار) يقدر الجغرافى المغربى الشريف الادريسى ، ويطلب منـــه الاقامة بعاصمته استفادة من علمه وخبرته ونجد (جون ملك الانجليز) يتسابق ليخطب ود الموحدين الذين كانت سياستهم الخارجية ترمى الى اضعاف سلطة (البابا) والتحالف مع الامارات المسيحية حـــتى يخفـــف الضغط عن المسلمين فى المشـــرق الذين كانوا يكابدون عناء الحروب الصليبية .. وقد تحدث لنا المؤرخون المغاربة وبالاخص «ابن ابى زرع» عن محاولة ملك (بيونة) وهى مملكـــة (بايون) التى كانت مقتطعة من فرنسا وتابعة لفرنسا ، عن قدومـه عـــلى الناصر وهو يستعد لمعركة العقاب التى تعتبر بداية انهزام دولةالموحدين فى الاندلس .. فقد جاء فى القرطاس لدى ذكره لدولة الناصر الموحدى ان ملك بيونة جاءه مستسلما خاضعـا مستصغرا يطلب صلحه ونيل عفوه وصفحه وانه لما سمع بدخـول اميـر المؤمنين الى اشبيلية ادركه الخوف ، فبادر الى المداراة عن نفسه وبلاده وبعث رسوله اليه يستأذنه فى القدوم عليـه ، فأذن له أميـر المومنيـن فى الوصول وكتب الى كل بلد من بلاد الاندلس هى عـن طريق هـذا اللعين اذا مر بهم أن يضيفوه ثلاثة

أيام ، فاذا عزم على الرحيل فى اليوم الرابع يحبسون بها عندهم من جيشه الف فارس فخرج هذا اللعين من قاعدة ملكه (بيونة) قاصدا ودخيلا امير المؤمنين ، وهكذا كان كلما وصل الى مدينة اسلامية استقبل احسن استقبال وانتقى من جنوده ألف فارس حتى اذا وصل مدينة (قرمونة) لم يبق معه الا الف فارس فتخلى عنها ليسير تحت ظلال سيوف الموحدين ، وكانت من هداياه الى الناصر كتاب الرسول الى هرقل محفوظا فى حلة خضراء فى وسط صندوق مملوء مسكا) ، وقد تلقاه الملك الموحدى فى موكب فاخر من (قرمونة الى (اشبيلية) وتولى ابو الجيوش عساكر الترجمة ، واقتضى البرتكول ان يدخل الملك يوحنا من باب والامير الموحدى من باب آخر حتى لا يقوم الملك الموحدى من أجله .. ودخل معه فى حفلة كبرى مدينة اسبيلية وكانت نتيجة المحادثات أن الاميرَ الموحدى صالح جون صلحا مؤيدا ما دامت دولة الموحدين ..

ويروى الناصرى فى الاستقصا نفس القصة بعد ذكره لغزوة العقاب وقد تصرف فى الرواية حيث جعل (ينبلونة) بدل (بيونة) ولكن ذكره لكتاب هرقل ونتيجة المباحثات لا يترك مجالا للشك فى أن المراد بملك (ينبلونة) هو ملك بيونة ، وقد يكون حرف الكلمة فى النسخ او حرفها لأنه وجد ذكر (بنبلونة) ولم يجد (بيونة) فاصلحها .. وكيفما كان الامر فان المؤرخين المغاربة لم يذكروا اسم الملك ولا اسم سفيره ، وانما اهتموا بوصف الاستقبال ومظاهر الحفاوة وتركوا هذه التفاصيل للمؤرخين الغربيين الذين أتموا الاطار التام لهذه السفارة وأسبابها ونتائجها .. عرضوها فى اطار نقدى لهذا الملك المسيحى الذى يتنازل أمام ملك مسلم ، والمؤرخون المغاربة يرون صراحة ان الملك جاء بنفسه ليحظى باستقباله الامير الموحدى ، كما يذكرون انه مهد لذلك بمبعوث خاص. أما فى تاريخ الانجليز فيذكرون أن (يوحنا جان بدون أرض) ولد

بأكسفورد سنة 1967 وملك بلاد الانجليز من سنة 1199 م الى 1216 م .. وهو الولد الخامس لهنرى الثانى، وقد تصدى منذ شبيبته الاولى للثورة على ابيه بمساندة ملك فرنسا بعد موت اخيه رشارد قلب الاسد المعاصر لصلاح الدين الايوبى فى الحروب الصليبية ، وقد خاض هذا الملك معارك سياسية وحربية مع فرنسا وكانت احدى مقاطعة هذه الاخيرة تابعة لانجلترا وهذه المقاطعة هى (بايونة) التى جاءت السفارة منها الى الاندلس .

وجاء عصر بنى مرين لنرى المغرب التزم الدفاع عن الاندلس وألقى بثقله العسكرى والسياسى فى الميدان ولمع من السفراء ابن الخطيب وابن خلدون اللذين بلغا قمة المجد فى بناء صرح الديبلوماسية المغربية كما سافر لهم ابن بطوطة الى افريقيا ولمع اسم ابن الفصار والبرجى وابن الجراح وابن ميمون وغيرهم .

كانت هزائم بنى مرين فى الاندلس مؤذنة بانهزام دولتهم . وجاء السعديون ليوحدوا المغرب من جديد على أساس التوسع فى الجنوب لتتكون لديهم ثروة يساعدون بها الاندلسيين الذين دخلت فلولهم فى جيش المنصور الذهبى الى السودان، حتى يستطيع العودة الى الاندلس وكانت هزيمة البرتغاليين فى وادى المخازن معركة فاصلة أودت بالبرتغاليين نهائيا . وجاء الانجليز ليكونوا اسواقا تجارية فى خارج بلادهم فأسسوا فى الشرق الشركة الهندية ، وفى المغرب (شركة بربرا) BARBARY COMPAGU وبقضى الاسطول الاندلسى المسلم بعد هزيمة غرناطة اعظم قوة لصد الاستفزاز الاستعمارى سواء فى حوض البحر والابيض المتوسط أو على الشاطىء الاطلسى ، وأخذت الدول الغربية لتضمن مسيرتها عبر البحار تؤدى للمغرب ضريبة مالية لقاء حمايتها من الاسطول الاندلسى الذى سمتاه الغربيون (بالقرصان) والذى كان يهاجم السواحل الاوربية بما فيها

اسبانيا وفرنسا وانجلترا وهولاندا انتقاما من هزائمه وتعريفا بقضيته ودفاعا عن الجاليات المشردة !!

وعملت الكنيسة في روما جهدها لتوحيد المسيحيين لمواجهة المسلمين في المغرب ـ فقرر البابا اقتسام الشاطىء المغربي بين اسبانيا والبرتغال توحيدا لجهودهم في ضرب العالم الاسلامي الغربي .. ولم يستجب البروتستانت لرغبة البابا فشجعت على التمرد ضد قراره ـ ولذلك احدثت شركة للتجار في بلاد الهند .. والمغرب . واخذ الاسطول الهولاندي يعبر الى الهند عن طريق الرجاء الصالح منذ سنة (1593م ـ 1007 هـ) . وعقدوا معاهدة تجارية مع المغرب سنة 1610 لتأمين التجارة الانجليزية .. واذ كان الهولانديون اخذوا ينافسون الانجليز ، فقد اتحدا معا لمحاربة اسبانيا عدوهم المشترك نظرا للخلافات السياسية والتاريخية والدينية بين البروتستانت والكاثوليك . ومن هذا المنطلق ارتكزت الديبلوماسية المغربية لتحرز انتصارات اقتصادية .

وصرف المنصور السعدي اهتماماته لغرس قصب السكر الذي كان معروفا في افريقيا حسبما هو مألوف في تاريخ الفلاحة الافريقية . كما ذكر المغريزي .. ولكن المنصور طور فلاحته وأنشأ معاصر للسكر في شيشاوة وتارودانت . كما استغل المغرب مناجم المعادن الموجودة قرب سجلماسة للنحاس والذهب .. وراجت صناعة الحرير والقطن في الجديدة على يد الانجليز سنة 1864 كما ازدهرت مصانع الثوب المعروف (بالطلس) .. واعطت هذه السياسة الاقتصادية ثمرتها فأصبح السكر المغربي مطلوبا في اسواق فرنسا وانجلترا وايطاليا بالاضافة الى ما يصدره لاوربا والشرق من جلود وزيوت ونحاس ورصاص وكبريت وحديد وملح البارود ، وبذلك اصبح (الدينار المغربي) هو العملة الصعبة في أوربا . وأخذ المغرب يقرض الدول الاوربية . حيث ساعد هولاندا وغيرها بقروض مالية .

ومن هنا استطاع المغرب أن يفرض ديبلوماسية هادفة الى استرجاع الاندلس حيث كان يعتبر دولة المواجهة التى فشلت فى حرب الاستنزاف فى غرناطة والجزيرة ، فعمد الى الوسائل الديبلوماسية التى كانت اسبانيا تستغلها ضد المسلمين أيضا . اذ ما كادت تسقط غرناطة حتى توجه آخر قضاتها ابن الازرق فسافر الى عدة دول اسلامية يطلب العون والمدد كتونس ، والقاهرة ، والحجاز ولكن هذه الدول التى كانت تعيش المنافسة فيما بينها خشيت أن يستغل (العثمانيون) توجه جيشها للمغرب فتحتل اراضيها ... وهى نفس المخاوف التى راودت العثمانيين واكتفى المصريون بتعيين القاضى ابن الازرق قاضيا بالقدس وبارسال وفد من المسيحيين ليحادث (البابا) فى روما و (ايزابيلا) فى اسبانيا .. وعاد الوفد وهو مطمئن على مصير المسلمين باسبانيا !!

حسن السائح

نظرات مقارنة في القصة العربية في العراق(*)

بقلم : الدكتور علي القاسمي

عندما اتحدث معكم اليوم عن القصة العراقية ، فليس هذا اقرارا مني بوجود قصة عراقية واخرى مغربية وثالثة مصرية وهكذا ، فنحن نؤمن بكينونة قصة عربية واحدة ذات سمات مشتركة وملامح متميزة. ذلكم لان المعيار الذي نتخذه في تصنيف القصص وتحديد هويتها انما هو معيار لغوي انثروبولوجي يستند على دعامتين رئيسيتين هما اللغة التي تكتب بها القصة ، والمدنية التي تفرزها . فاذا كتبت قصتان بلغتين مختلفتين انتفى احد الشرطين اللازمين لاعتبارهما من جنسية واحدة . فالقصة الكندية التي تكتب بالفرنسية والقصة الكندية التي تكتب بالانجليزية تعتبران قصتين مختلفتين رغم أنهما كتبا في بلد واحد ضمن حدود جغرافية سياسية واحدة ، لانهما يستخدمان وسيلتي تعبير مختلفتين لا يمكن تجاهل الفروق بينهما ، لان الادب فن نسيجه ومادته اللغة ، ومثلهما في ذلك مثل لوحتين ترسم احدهما بالالوان المائية والاخرى بالباستيل ، او قطعتين موسيقيتين

(*) نص المحاضرة التي ألقيت بقاعة مديرية الشؤون الثقافية في الرباط بتاريخ 18 ماي1973.

تعزف احداهما على البيان وتعزف الاخرى على الآلات الهوائية . ونعنى باللغة هنا اية فعالية بشرية رمزية متقنة ، تتألف رموزها من اصوات منطوقة او كلمات مكتوبة مركبة فى طبقات وانماط تركيبا معقدا متناسقا. ان الاصوات اللغوية بمثابة رمـوز أي انها ذات دلالة ومغزى ولكن الصلة بين الرمز ومدلوله هى صلة اعتباطية يتحكم بهـا المجتمـع . والرموز اللغوية بمثابـة منبهـات واستجابـات قـابلـة للتعويـض باستطاعتها اثارة منبهات واستجابات اخرى بحيث يصبح الكلام مستقـلا عن اى منبه مادى مباشر . ان مضامين اللغة وتراكيبها هى دائما على درجة كبيرة من الاتقان بحيـث يمكـن للناطقين بها التعبير عن تجاربهـم وخبراتهم مهما كانت(1) .

وغالبا ما تتشعب اللغة الواحدة الى لهجات جغرافية وطبقية . وهذا يعنى وجود فروق فى اللفظ والمفردات والتراكيب النحوية بين المناطـق الجغرافية المختلفة ، وكذلك بيـن الطبقات الاجتماعية التى تستخـدم اللغة ذاتها . ولكن لا يمكن اعتبار تلك اللهجات الجغرافية او الطبقيـة لغات متباينة ما دام التفاهم بيـن الناطقين بها ممكنا . واذا استحال التفاهم بينهم اصبحت تلك «اللهجات» بمثابة لغات مستقلة(2) . كما قـد تعانى اللغـة الازدواج المتخصـص DIGLOSSIA وهى ظاهرة نجدها فى معظم لغات العالم الكبرى ولكنها تتفاوت قوة وضعفا من لغة لاخرى . ونعنى بالازدواج المتخصص وجـود صيغتين من اللغة احداهما فصحى تستخدم فـى الكتابـة والمناسبات الرسمية والدينية ومعظم ما تبثـه وتنشره وسائـل الاعلام . والاخرى عامية يستخدمها الناس فى غيـر تكلف لقضاء حاجاتهـم اليوميـة العادية(3) . ولكن ما بين هاتيـن الصيغتين من مميزات لغوية وحضارية مشتركة يـدعـو علـمـاء اللغة الى اعتبارهما لغة واحدة .

ونجد فى اللغة العربية ، بسبب ما لها من عمر مديد وانتشار جغرافى واسع ، كلتا الظاهرتين آنفتى الذكر ، اى ظاهرة اللهجات الجغرافية والطبقية وظاهرة الازدواج المتخصص . وقد عاصرت هاتان الظاهرتان لغتنا العربية فى جل مراحلها التاريخية ، ولا ينفى ذلك أن اللغة العربية هى لغة واحدة ، وان ما يدون فيها من ادب قصصى هو ادب واحد اذا توفر له الشرط الآخر اى المدنية الواحدة .

ونعنى بالمدنية هنا مفهوما يختلف بعض الشىء عما نطلق عليه كلمة الحضارة رغم أن عددا من الباحثين يستخدم لفظتى الحضارة والمدنية وكأنهما شىء واحد(*) . كما يذهب جانب آخر من الباحثين الى جعل كلمة الحضارة تختص بالدين والفلسفة والفن ، والمدنية تختص بالتكنولوجيا والعلوم البحتة ، ولكن الانثروبولوجيين المعاصرين يميزون بينهما على نحو آخر ، وهذا ما نأخذ به . فهم يعرفون الحضارة بأنها طريقة الحياة التى تختص بها مجموعة بشرية ، وتشتمل على انماط السلوك المكتسبة التى يفرزها الفرد والتى يتوقعها الافراد الاخرون ، المنتمون الى تلك المجموعة البشرية ويقبلونها. اما المدنية فهى نوع متقدم من الحضارة يشتمل على استعمال الكتابة ، ووجود المدن ، والتنظيم السياسى الشامل ، وتطور التخصص المهنى . فالمدنية هى حضارة مجموعة كبيرة من السكان استمرت لفترة طويلة وتوفرت لها تلك العناصر(4)

وبينما تعتبر اللغة الشرط الاساسى فى قيام الحضارة ، اى انه لا يمكن أن نتصور وجود جماعة منظمة من دون لغة ، فان الادب هو العامل المشترك الذى يربط بين الجماعات التى تنتمى الى مدنية واحدة . وقد يكون الادب مدونا أو شفهيا تتناقله السنة الناس . واشتراط الادب عنصرا من عناصر المدنية يفيدنا فى التفريق بين

مدنيتين قد تتماثلان في الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الاجتماعية ، والعقائد الدينية . ففي الوقت الذي نستطيع ان نقول فيه بأن المدنية القائمة في المغرب والمدنية القائمة في العراق هما فرعان من مدنية واحدة هي المدنية العربية ، لا يسعنا اطلاق الحكم ذاته على المدنيتين الفارسية والعراقية رغم ما بينهما من عوامل مشتركة كثيرة لانهما لايتمتعان بأدب واحد . فالقرآن الكريم مثلا الذي يعتبر الدستور الديني والاخلاقي والاجتماعي وحتى الاقتصادي للامتين الفارسية والعربية لا يعتبر نصا ادبيا يقتدى به في اللغة الفارسية بينما يعد قمة البلاغة العربية ومثلا اعلى للاساليب الادبية في العالم العربي .

وينظر الباحثون الانثروبولوجيون الى الامة العربية على انها ذات مدنية واحدة اجتمعت لها العناصر الاساسية وتوفرت فيها الشروط المطلوبة ، رغم انها ـ والظروف تاريخية وسياسية معينة ـ انقسمت الى دول وامارات ، ورغم ما يبدو لمن ينظر نظرة سريعة غير مدققة بان كل دولة وامارة تختص بحضارة مستقلة او مدنية منفصلة . فالفروق الموجودة بينها ليست جوهرية ، والاختلافات القائمة ليست اساسية ، وهي مهما كثرت لا تغير حقيقة ان الامة العربية تتمتع بمدنية واحدة تطبع كافة اوجه الحياة فيها ، وتصرفات ابنائها وسلوكهم بطابع متميز .

ولما كان الادب بصورة عامة والفن القصصي بصورة خاصة هو محاكاة مهذبة للحياة وتصوير هادف لما يجرى فيها ، فباستطاعتنا القول بأن القصة العربية ، سواء كان منشؤها الخرطوم او الدار البيضاء او حمص او البصرة ، وسواء كان كاتبها عراقي الجنسية او مغربيا أو مصريا ، هي قصة واحدة ذات خصائص مشتركة ، لانها من نتاج المدنية العربية وتعنى من حيث

الاساس بمشاغل المجتمع العربي وقضاياه .

ونخلص الى القول بأن معيارنا في تصنيف الاقاصيص وتحديد هويتها هو معيار لغوى انثروبولوجي يعتمد على ركيزتين هما اللغة التى يكتب فيها العمل القصصى والمدنية التى افرزته . وعلى هذا تبرز لنا ثلاثة انواع من الاعمال القصصية:

1 ـ ينتظم الصنف الاول الاعمال القصصية التى تكتب بنفس اللغة وتعكس المدنية ذاتها ، مثل ذلك القصص التى تكتب باللغة العربية فى ارجاء الوطن العربى .

2 ـ يضم الصنف الثانى تلك الاعمال القصصية التى تتفق من حيث اللغة التى دونت فيها ، وتختلف من حيث الحضارة التى تمثلها ، ومثل على ذلك القصص التى تكتب بالانكليزية فى انجلترا وتلك القصص التى يكتبها بعض الهنود باللغة الانجليزية ، فهى قصص تختلف عن بعضها رغم انا تستخدم لغة واحدة ، ذلك لانها تمثل مدنيتين مختلفتين، ولا توجد سمات حضارية اساسية مشتركة بين الهند وانجلترا . ويقع فى هذا الصنف الاعمال القصصية التى كتبها عرب مغاربة بالفرنسية مثل رواية « نجمة » لكاتب ياسين ورواية « صندوق العجائب » لاحمد الصفريوى ورواية « الارض والدم » لمولود فرعون ، وكذلك الاعمال القصصية التى كتبها عرب مشارقة بالانجليزية مثل قصة « الزقاق الضيق » لجبرا ابراهيم جبرا .

3 ـ يشتمل الصنف الثالث على الاعمال القصصية التى تفرزها مدنية واحدة ولكنها تكتب بلغات مختلفة . ولعل القصص المترجمة خير مثل على ذلك ، فالنص المترجم يظل محافظا على السمات الحضارية التى يزدان بها النص الاصلى . ولكن الاداة التعبيرية اختلفت .

نعود الان الى القصص العربية

الحديثة فنقول انها لا تتفق في اللغة والحضارة فحسب بل تتفق حتى في امور ثانوية اخرى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الظروف التي نشأت فيها ، والمذاهب الادبية التي ترسمتها ، والقضايا الرئيسية التي عالجتها .

لقد ظهرت القصة العربية ونمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من هذا القرن اي ابان النهضة الاجتماعية الحديثة. وقد ساد هذه الفترة صراع في الامة العربية بمختلف اقطارها حول فكرتين رئيسيتين ، الاولى تدعو الى التمسك بالتراث العربي واحيائه كمنطلق لكل نهضة جديدة ،والثانية ترى في المدنية الاوربية المتفوقة المنقذ الوحيد . وظل الادب العربي الحديث بصورة عامة يتأرجح في تطوره بين التأثر بالادب العربي القديم وبين التأثر بالاداب الاوربية الحديثة(5) . ولقد ظهر اتجاه ثالث يدعو للتوفيق بين هاتين الفكرتين والتزاوج بين التراث العربي ومعطيات المدنية الغربية . ونحن نرى أن الاتجاه الثالث هذا ، انما هو تحصيل حاصل ، بمعنى اننا طوعنا معظم ما اخذناه عن الغرب لحاجاتنا الاقتصادية والنفسية وظروفنا الموضوعية والاجتماعية وهذا الحكم ينسحب على القصة العربية كذلك. فاذا قبلنا رأي المستشرق البريطاني المعروف البروفسور اربرى القائل بان القصة في العالم العربي قد مرت في تطورها بمراحل ثلاث هي مرحلة الترجمة البسيطة من القصص الغربية ، فمرحلة التقليد المباشر لها اي تذييل قصص عربية على غرار قصص أوربية فمرحلة الابداع الاصيل(6) ، فنحن نرى بان التزاوج بين الاداب الاوربية والتراث العربي يبرز في هذه المراحل جميعا . ففي مرحلة الترجمة مثلا لم يكن المترجم حرا يترجم جميع ما يظهر من قصص او يختارها بطريقة عشوائية ، بل كان ينتقي قصصا دون اخرى ، وهو في اختياره هذا

انما يخضع لما تمليه عليه متطلبات التراث الادبى العربى وكذلك لاذواق القراء وحاجاتهم النفسية ، وكان النص العربى المترجم يتأثر ولا ريب بتراكيب اللغة العربية واساليبها . فاذا قلنا بان اللغة وعاء تصب فيه المضامين الحضارية والفكرية ، فلا مهرب من القول بان تلك المضامين تتأثر بشكل الوعاء ولونه والمادة المصنوع منها ، وذلك تمشيا مع مفهوم نظرية الحقل الفيزيادية FIELDTHEORY التى تنص على أن من الصعب جدا ان لم يكن من المستحيل أن تحافظ المادة على استقلالها من دون ان تتأثر وتؤثر بما حولها من مواد وفراغ . ومن هنا يمكن فهم تعريف استاذنا البروفسور ارجبولد هل للغة على انها نموذج لحضارة ما وتكيف تلك الحضارة للكون(7) .

وحتى فى مرحلة الابداع الاصيل فى القصة العربية فان الكاتب العربى لا يستطيع ان يعزل نفسه تماما عن التيارات الادبية والنقدية ، والاساليب الفنية التى تزدان بها القصص الغربية ، وذلك يؤدى الى ان يتأثر من حيث يدرى او لا يدرى بالمدنية الغربية فيما يكتب ، وهذا ما دعا البروفسور اربرى الى القول بـ « أن الانتقال من السوسيولوجيا الغربية الى تصوير الحياة العربية لم يتم بصورة كاملة فى القصة العربية »(8) .

اما القضية المصيرية التى ارتبطت بها القصة العربية فهى قضية الحرية ، الا انه يمكن القول بأن الحرية هى القضية الرئيسية التى يلتزم بها كل كاتب انى كان وحيثما صار ، وليست حجرا على القاص العربى .

ولكن الحرية مسألة ذات اوجه متعددة ، فقد يجاهد الكاتب فى مجتمع اقطاعي فى سبيل تحرير الفلاح من سيطرة الاقطاع واستعباد الارض له ، وقد يناضل الاديب فى البلدان الصناعية من اجل

تحرير الانسان من تحكم الالة فيه ، وقد يكافح المفكر في مجتمع يسوده التمييز العنصري في سبيل تحرر السود او الملونين من الذل والامتهان. اما القاص العربي فقد شغله عموما نوعان من التحرر ، هما التحرر من الاستعمار والتحرر من قيد الزمن(9) . فقد خضعت الامة العربية كلها تقريبا ، ابان ظهور القصة الحديثة ونموها ، للاستعمار السياسي والاقتصادي والنفسي ، سواء كان ذلك من قبل بريطانيا او فرنسا او ايطاليا او اسبانيا . واحس المفكرون العرب بفداحة الامر واصبحت مسالة الحرية والاستقلال لدى القاص العربي مسالة حياة او موت ، فحشد كافة ادواته الفنية والفكرية في معركة التحرر . وما كتب من قصص عن قضية فلسطين وحرب التحرير الجزائرية على اختلاف درجة المباشرية فيها هي دون شك في صميم التزام القاص العربي بقضية الحرية . ومن ناحية أخرى شعر المفكر العربي بأن مجتمعه ينوء تحت ثقل تقاليد بالية وعادات اجتماعية ضارة لا مندوحة من التخلص منها اذا اريد لامته الانعتاق من اصفاد الجهل والمرض والفقر . وكان قيد الزمن على اشده في الريف فاضحت القرية مشهدا لاعمال قصصية كثيرة . فكتاب مصر مثلا كرسوا قسما كبير من قصصهم للقرية والفلاح . وهذا تقليد تمتد جذوره الى قصة (زينب) لمحمد حسنين هيكل ويظهر جليا في اعمال يحيى حقي ومحمود البدوي ، والشرقاوي وتوفيق الحكيم ويوسف ادريس وغيرهم . وفي القصة العراقية نجده في قصص محمود السيد وجعفر الخليلي وذنون ايوب وشاكر خصباك وعبد الملك النوري ولدى كافة القصاصين الاخرين وفي سوريا ولبنان نجده في قصص سهيل ادريس والعجيلي ، وفي المغرب العربي يتناوله كل من عبد الكريم غلاب وعبد الرحمن الفاسي وعبد المجيد بنجلون وغيرهم ، وفي السودان يتجلى في قصص الطيب الصالح .

اما من حيث المذاهب الادبية فيمكن القول بأن التزام الاديب العربي بقضية الحرية ودفاعه عن الطبقات المضطهدة والانسان المسحوق جعل القصة العربية تعنى بمجاراة الحركة الوطنية وبلورتها ، واعتبر القاص العربي نفسه ذا رسالة تربوية توجيهية وطنية ، ولهذا فان القصة العربية انتهجت الواقعية الاجتماعية ، وان ظهر تيار ادبي اخر فانه يحتل مكانة هامشية في مجموع الانتاج الادبي العربي الحديث ، وحتى الاتجاه الرومانسي كان يمتزج في اغلب الاحيان بحضور اجتماعي نضالي كالذي نجده لدى جبران خليل جبران والمنفلوطي . اما الاتجاه الرومانسي المحض الذي عرفه الغرب خلال القرن التاسع عشر فنادر الوجود في القصة العربية ، وهذا ما حدا بالاستاذ عبد الكبير الخطيبي ان يقول في معرض تعليقه على « اللهاث الجريح » لحمد الصباغ : « على أن حالة هذا الأديب تعتبر ظاهرة منفردة في الادب المغربي ، فباستثناء الشابي الذي وعت كل الافئدة شعره النضالي، فان الرومانسية تطورت متأثرة بالوطنية المغربية » (10) .

ان سيادة الاتجاه الواقعي في القصة العربية يلخصه لنا نجيب محفوظ حين يقول معلقا على التسميات المختلفة التي تطلق على أدبه : « أنا لم أخرج عن تيار الواقعية » وكأنه يرد تهمة سيئة عن نفسه .

والان انتقل الى الحديث عن القصة العراقية متخذا منها مثلا لما اشرت اليه من الملامح الرئيسية للقصة العربية ومميزاتها العامة ، مقتصرا على اوجه مختارة منها لضيق الوقت ، موجها ملاحظاتي بصفة خاصة الى القصة القصيرة . ولقد وقع اختياري على ناحيتين هامتين هما : 1) نشوء الاقصوصة العراقية. 2) تطورها من حيث الشكل والمضمون .

I ـ نشوء الاقصوصة العراقية :

يكاد يتفق معظم الباحثين على أن الصحافة اللبنانية هي التي قدمت الاقصوصة الحديثة الى القارىء العربي حوالى عام 1870 . وسرعان ما تلاقفتها مصر ، ولكن تأخر ظهورها في العراق بحوالى نصف قرن من ذلك التاريخ . ولعل هذا ما يدعو الى الاستغراب اول وهلة ، اذ أن العراق بلد المقامة ومهد الف ليلة وليلة ، وذو تقليد حكائي عريق . ولكن نظرة فاحصة للاسباب التاريخية والموضوعية كفيلة بازالة الاستغراب . ويمكن ان نجمل هذه الاسباب بما يلي : (12)

أ ـ بعد العراق نسبيا عن شواطىء البحر الابيض المتوسط ، ملتقى المدنيتين الغربية والعربية في كافة المجالات التجارية منها والفكرية

ب ـ بقاء العراق تحت السيطرة العثمانية الفعلية حتى الحرب العالمية الاولى ، وظلت التركية لغة البلاد الرسمية حتى ذلك التاريخ . بينما كانت مصر تتمتع باستقلال ذاتي ، وتم الاعتراف بالعربية لغة رسمية فيها منذ عهد الخديوي اسماعيل .

وكانت لبنان ذات وضع سياسي خاص بسبب وجود نسبة كبيرة من المواطنين العرب المسيحيين ، وتدخل الدول الغربية لضمان نوع من الحرية وتخفيف قيود الحكم العثماني هناك .

ج ـ كان العراق يعاني شحة المدارس وندرة المتعلمين أي انه كان يخلو من طبقة قراء تشجع ظهور الاقاصيص ونموها . بينما كانت مصر قد باشرت بارسال البعثات العلمية الى أوربا ، وفتحت المدارس الحديثة في مدنها منذ تولى محمد علي الكبير مقاليد الحكم فيها . وكانت مدارس المبشرين الاوربيين والامريكان تتواجد في لبنان بصورة متزايدة .

ك ـ لقد تأخر ظهور صحافة

قادرة متمركزة فى العراق ، وكانت الصحافة ومازالت خير مشجع للاقصوصة . واذا كانت الصحيفة العراقية الاولى (الزوراء) صدرت على يد الوالى العثمانى مدحت باشا عام 1869 فانها كانت جريدة رسمية لاتعنى الا باخبار الحكومة وتعليماتها اضافة الى انها كانت تستخدم اللغتين العربية والتركية معا . وبينما كانت فى لبنان 15 جريدة و 14 مجلة فى الفترة الواقعة بين 1894 و 1904 اى الفترة التى سبقت اعلان الدستور العثمانى ، فانه لم يكن للعراق سوى جريدة واحدة ومجلة واحدة فى الفترة ذاتها (13) .

والآن ما هى أول قصة فى العراق ومن هو رائدها ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب التنويه الى ما كان عليه الادب العربى فى النصف الثانى من القرن الماضى والنصف الاول من هذا القرن من تأرجح بين التراث العربى القديم ، وبين الادب الغربى الحديث ، مع ظهور اتجاه وسط يرمى الى التوفيق بين التيارين كما اشرنا ، وانطلاقا من هذه الحقيقة يمكننا تحليل اراء النقاد والباحثين فى نشأة القصة العراقية ، وتصنيفها الى ثلاثة اراء رئيسية :

اولا – هناك من يرى بأن القصة العراقية الحديثة هى من معطيات الادب العربى الاصيل ، وما الاقصوصة الا الوليد الشرعى للمقامة العربية القديمة التى ازدهرت فى العصر العباسى على ايدى الهمذانى والحريرى . ويرون فى مقامة ابن الثناء الالوسى الخامسة الموسومة بـ « سجع القمرية فى ربع العمرية » الاقصوصة العراقية الاولى، ويعتبرون مؤلفها رائد الفن القصصى فى العراق . وكانت مقامات الالوسى قد ظهرت عام 1856 . واذا امعنا النظر فى هذه المقامات وجدنا انه خرج فيها عن نهج المقامة التقليدى نوعا ما . فهى تخلو من بطل أو راو ، وتقترب

من الرسائل الادبية . وكانت مقامته الخامسة التى اشرنا اليها تختلف عن المقامات فى الاسلوب والغرض، فقد كان اسلوبها قصصيا يروى حادثة تامة ذات بداية ونهاية ، ولم يكن غرضها اظهار المهارة اللغوية بل كانت تهدف الى نقد الاوضاع المتردية فى العراق . وكان أول من اعتبر مقامات ابى الثناء الالوسى قصصا ادبية هو الباحث عباس العزاوى(I4) وشايعه فى ذلك عبد القادر حسن امين فى كتابه « القصص فى الادب العراقى الحديث » (I5) .

ثانيا ـ يذهب جانب من الباحثين الى أن القصة العراقية الحديثة لم تنشأ نتيجة مباشرة لتأثير القصة العربية التى كانت تحقق نموا ملحوظا فى سوريا ولبنان ومصر ، بل تطورت بصورة خاصة من قصص الرؤيا التى برزت على المسرح الادبى بين 1909 و 1921 . ويمكن اعتبار قصص الرؤيا هذه شكلا فنيا خاصا يسكب فيه محتوى اجتماعيا اصلاحيا. وتتميز الرؤيا فى خصائص اسلوبها عن المقامة والمقالة السياسية . فالرؤيا تتكون عادة من مقدمة قصيرة يهيأ فيها القارىء لقبول الرؤيا او الحلم الذاتى ، كأن يقول البطل بأنه كان مستلقيا على الفراش ورأى كما يرى النائم ، ثم يقص رؤياه التى تشكل متن القصة ، ثم يختمها بنصائح البطل ومواعظه التى يستنبطها من الرؤيا (I6) .

ويرى الباحث عبد الاله احمد فى كتابه الموسوم بـ « نشأة القصة وتطورها فى العراق »(I7) ان قصص الرؤيا ظهرت بصورة رئيسية نتيجة لتأثير الادب او الفكر التركى الحديث الذى كان « باعثا للنهضة الادبية العامة » فى العراق . ولقد كان لانتشار رواية الرؤيا للاديب التركى نامق كمال التى ترجمها الشاعر العراقى معروف الرصافى ، ونشرها فى بغداد عام 1909 اثر كبير . ويعتبر عبد الاله احمد ان التطور الذى طرأ على قصص الرؤيا

قاد أحمد كتابها عطا امين الى كتابة اول قصتين يمكن اعتبارهما محاولة رائدة فى كتابة الاقصوصة العراقية الحديثة . وقد نشرت هاتان القصتان عام 1920 ، الاولى بعنوان : « لوحة من الواح الدهر او فصل من رواية الحياة » . والثانية بعنوان « عاقبة الحياة » . ويخلص عبد الاله احمد الى القول : « ومهما يكن من شيء ، فاننا نعتبر هاتين القصتين اول محاولة جادة فى القصة العراقية ، وان كاتبهما هو الرائد لهذا الشكل فى الادب العراقى الحديث ، بما قدم من قصص الرؤيا، وفى خروجه عن اطار قصص الرؤيا فى هاتين القصتين» (18) .

ثالثا ـ يؤكد بعض الباحثين على أن القصة بمفهومها الحديث بدأت على يد محمود أحمد السيد الذى تعرف على اساليب القصة الحديثة فى أوربا عن طريق الترجمة سواء تلك الترجمات التى ظهرت فى المجلات والصحف العربية القادمة من مصر ولبنان او تلك التى نشرت فى اللغة التركية التى كان يجيدها السيد ويترجم منها ، والتى تعرف عن طريقها على القصة الروسية . وقد الف الدكتور على جواد الطاهر استاذ الادب العربى فى جامعة بغداد كتابا جليلا بعنوان « محمود احمد السيد رائد القصة الحديثة فى العراق » . وكان السيد قد اخذ ينشر اقاصيصه فى اوائل العشرينات ، واصدر عددا من الروايات والمجاميع القصصية ، ونشر فى الصحف كثيرا من المقالات الادبية وترجم الى العربية العديد من القصص التركية .

والان ترى من هو الرائد الحقيقى للقصة الحديثة فى العراق ؟

أهو ابو الثناء الالوسى ام عطا امين أم محمود احمد السيد ؟

ولكن ما فائدة معرفة الرائد ؟ أيهمنا ان نكرم رجلا معينا بالذات

أو نسبغ عليه اكاليل الغار ونياشين النصر ؟ باعتقادي ان البحث عن الرائد الاول في أي فن من الفنون انما يرمي في حقيقة الامر الى الكشف عن الاثر الذي خلفه الرائد على تطور ذلك الفن ونموه ، والطابع الذي طبعه فيه ، والاتجاهات التي اختطها وشايعه الاخرون في ترسمها والسير على نهجها . واذا قبلنا بذلك منطلقا فاننا نستطيع ان نقرر بيسر ووضوح من هو الرائد الذي خلف طابعه على القصة العراقية . ان نظرة فاحصة ترينا ان مقامات ابي الثناء الالوسي ليست بالاقاصيص الحديثة التي شاعت ونمت في العراق فيما بعد ، ولا نجد لتلك المقامات من اثر يذكر في اساليب اقاصيصنا أو مضامينها . كما ان قصص الرؤيا هي الاخرى كانت محدودة بفترة زمنية معينة ، وكانت تسلك طريقا وسطا بين المقامة اسلوبا والمقالة الاجتماعية مضمونا ، وليست هي من القصة الحديثة في شيء ، ولم تؤثر بشكل ملموس على اتجاهات القصة العراقية وموضوعاتها . ان محمود احمد السيد وكتاب مدرسته من امثال خلف شوقي الداودي وانور شاؤول وعبد الحق فاضل، هم الذين وضعوا اللبنات الاولى في صرح الاقصوصة العراقية التي بنى عليها من تبعهم في هذا المضمار . لقد حدد محمود احمد السيد غرض القصة في « بث الدعوة للحرية ، وهدم كل بناء فاسد نظامه »(19) وهذا ما المحنا اليه منذ قليل بقولنا ان القاص العربي يناضل من اجل التحرر من الاستعمار والتحرر من قيد الزمن أو التقاليد البالية . أن الاتجاه الذي اختطه السيد للقصة العراقية هو الاتجاه الواقعي الذي اخذه عن القصاصين الروس الكبار من امثال ترجنيف ودوستوفسكي وتولستوي . لقد كان محمود احمد السيد يتمتع بوعي سياسي ناضج وكان ملتزما بقضية الحرية ، ملتزما بقضية الانسان المسحوق ، وكان يناضل في ادبه من اجل حياة كريمة ومستقبل افضل للجماهير الكادحة

والطبقات الفقيرة ، فنقل الفن القصصي من الحذلقة اللفظية والحلم الذاتي الى الواقع الموضوعي الذي كان يعيشه الشعب العراقي . ولم يكن السيد وزملاؤه قد تأثروا بالادب الغربي والروسي فحسب، بل تأثروا كذلك بالقصة المصرية الحديثة ، وبكتابها البارزين من امثال محمود تيمور وتوفيق الحكيم والمازني وطه حسين والعقاد . وكان من اعجاب السيد بمحمود تيمور انه اهدى اليه بعض الاقاصيص التي نشرها في اوائل الثلاثينات . ولقد ظلت القصة العراقية فيما بعد تنهل من هذين المعينين اعني بهما الادبين الغربي والعربي في كافة مراحل تطورها .

تطور القصة العراقية :

من المشاكل الهامة التي تواجه الباحث في دراسة تطور القصة العراقية من حيث بنائها الفني ولغتها ومحتواها عدم وجود معيار موضوعي نقيس به جودة الاقصوصة وتكاملها بشكل حسابي مضبوط . لان فن الاقصوصة في العالم مازال في دور الحداثة والنمو ولا يوجد اجماع ولا حتى شبه اتفاق بين النقاد على العناصر الفنية التي يجب توفرها في العمل الادبي لكي ينطبق عليه اسم « الاقصوصة » .

فالاقصوصة لا تمتلك مقومات شكلية مميزة كما هو الامر مثلا في الشعر العمودي حيث يجب ان تتحلى القصيدة بمواصفات معلومة في المطلع وعدد التفعيلات والقوافي وما الى ذلك . ومن هنا جاءت صعوبة تعريف القصة المتكاملة فنيا ، حتى ان ناقدا شابا حاول تعريفها فقال : « لاتعرف الأقصوصة دائما بأسلوب بنائها وسبكها فقد كانت الاساليب وما زالت تتغير وتتطور ، ولكنها تعرف برعشة الحياة فيها وبقوة تأثيرها الذي لاينسى» (20) . لعمري ان رعشة الحياة هذه وقوة التأثير تلك يمكن ان يقالا ايضا عن القصيدة والمسرحية واللوحة والقطعة الموسيقية وغيرها من الاعمال الفنية

ويبدو أن كثيرا من النقاد يتخذون من الطول معيارا لتصنيف الاعمال القصصية الى رواية واقصوصة . فيقولون بأن القصة التى لا تزيد على 15.000 كلمة تعتبر اقصوصة . وهذا المعيار ادى الى ظهور تسميات مثل « اقصوصة طويلة » و « رواية قصيرة » وغير ذلك لوصف القصص التى تقع بين الاقصوصة والرواية من حيث الطول . ولا يمكن التسليم بالرأى القائل بأن الاقصوصة تمتاز بوحدة اكثر من الرواية ، فكلاهما يتصف بالوحدة ، كما هو الحال بالنسبة للصوناتا والملحمة . ولايمكن التسليم بالرأى القائل بأن الاقصوصة تتعامل مع شخصيات أقل او تهتم بفترة زمنية اقصر من تلك التى تهتم بها الرواية . فمع ان هذا هو الغالب فقد تتناول الاقصوصة العديد من الشخصيات وتغطى العشرات من السنين ، بينما قد تقتصر الرواية على يوم واحد فى حياة ثلاثة اشخاص فقط(21) . ان عدم قدرة النقاد على تحديد العناصر الفنية فى القصة الحديثة هو الذى يجعل من الصعوبة بمكان تحديد رواد الرواية او رواد الاقصوصة ، وهذا ما دعا القصاص ألن تيت الى القول بـ « ان جوستاف فلوبير قد خلق القصة الحديثة . وهو نفسه قد خلق الاقصوصة الحديثة . خلقهما لانه خلق فن القصص الحديثة»(22) . ولكنه سرعان ما يستدرك قائلا : « وانا لست على استعداد للقول بأنه قد خلق كل اشكال القصص وطرز ابنيتها» (23) .

ولعل محاولة وليم فيليبس محرر مادة « القصة القصيرة » فى دائرة المعارف البريطانية من افضل المحاولات للخروج من هذا المأزق . اذ يرى فيليبس بانه يمكن النظر الى اقصوصة القرن العشرين وكأنها تشغل مربعا تقوم زواياه الاربعة على المقالة السردية ، والقصيدة الغنائية ، والنثر المسرحى ، والتاريخ الاجتماعى المحلى . فبعض القصص القصيرة تقع فى وسط

المربع اما بعضها الاخر فانه برغم وجوده داخل المربع فهو اقرب الى احدى الزوايا (24) . واذا اتخذنا تلك المحاولة منطلقا لدراسة نمو الاقصوصة العراقية فان باستطاعتنا ان نقسم مراحل تطورها الى ثلاث مراحل هى :

I ـ فترة ما بين الحربين العالميتين .

2 ـ الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الثانية وثورة الرابع عشر من تموز 1958 .

3 ـ الفترة الراهنة التى بدأت فى اوائل الستينات .

1) فترة ما بين الحربين العالميتين :

ادت الحرب العالمية الاولى الى تغير فى الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى العراق وخلقت ظروفا جديدة يمكن تلخيصها بما يأتى :

(I) اتصال العراق مباشرة بالمدنية الغربية عن طريق الاحتكاك بالقوات البريطانية الغازية ، وما جلبته معها من مظاهر المدنية والتقدم . وكان اتصاله قبل ذلك اتصالا غير مباشر لخضوعه للحكم العثمانى وبعده عن موانىء البحر الابيض المتوسط كما نوهنا .

(2) ادى ذلك الاحتكاك الى شعور المثقفين العراقيين بتخلف أبناء شعبهم وبفداحة الفرق بين ما هم عليه من تأخر وما بلغته الشعوب فى مضمار التقدم . ونما لدى المفكرين منهم عزم خالص على تغيير الاوضاع القائمة وخلق غد افضل للاجيال الصاعدة .

(3) ازدياد وسائل النشر كالمطابع ودور الكتب ، وتوفر الطباعة والورق مما ادى الى صدور عدد اكبر من الصحف والمجلات .

(4) انتشار النتاج النثرى المصرى

فى العراق ، وتأثيره فى الكتـــاب العراقيين (25) .

وفى هذه الفترة اتخذ المفكرون العراقيون من القصة شكـــلا فنيـا يصبون فيه مضمونا اجتماعيا ومحتوى سياسيا . وهذه الظاهرة عامة فى الوطن العربى نجد أمثلة عليها فى المغرب فى قصص عبد الله العروى ومحمد زنيبر وغلاب وبنجلـــون . وابرز قصاصى هذه الفترة محمود احمد السيد وجعفر الخليلى وعبد الحق فاضل وعبد المجيـــد لطفـى وذنون ايوب . ورغم أن القصـــة العراقية قد بدأت فى هذه الفترة بالروايات الطويلة كروايـة « فـى سبيل الزواج » لمحمود احمد السيد، ورواية « سليـــم ونديـم » لسامى خوندة ، فانها سرعان ما تركـزت فى الاقصوصة . ويجمع النقاد على ان اقاصيص هذه الفترة كان يعوزها الصدق الفنى وتعانى ضعفا بالغا فى المحتوى والاسلـــوب والتكنيـك ، تتلخص اعراضه فى السرد التقريرى الذى سادها ، واللهجة الخطابيـــة والمباشرية التى غلبـــت عليـهـا ، والطابـع التعليمى والوعـظى الـذى طبعهـــا .

ولكن هؤلاء النقاد يشخصـــون الاعراض دون ان ينفذوا الى المسببات، ويمعنون فى تجريم قصاصى تلك الفترة دون النظر الى الظروف المخففة التاريخية والموضوعية التى اثـرت فى اعمالهـم القصصية . وبعبـــارة أخرى فانهم يخضعون انتاج تلـــك الفترة الى معاييرنا النقدية المعاصرة ان تيار السرد التقليدى هو التيار الذى كان سائدا فى القصة العالمية انذاك . او عـــلى اقل تقـدير هـو التيار الذى كان يغلب على النماذج المترجمة والموضوعة التى توفرت فى ذلك الحين واتخذها الكاتب العراقى مثالا ينسج على منواله . ونـحن لا نؤاخذ جيـل الـــرواد لاستخدامهم اسلوب السرد والحكاية الخبرية ، فهذا النهج الفنى لا يعتبر رديئا فى ذاته ، فلطالما استخدمـــه كتـاب

بارزون وجودوا به ، وانما يكمن العيب في اساءة استعماله . فالاساليب الفنية تشبه الى حد كبير الطرق التدريسية التى يتوقف نجاحها فى الواقع على قدرة المدرس واصالته لا على الفرق بينها . اما بالنسبة للهجة الخطابية والمباشرية التى طغت على اقاصيصهم فيمكن تعليلها اذا ما استقصينا دوافعها وتفحصنا اسبابها . فلقد كان الرواد اصحاب رسالة اتخذوا من الادب وسيلة لتغيير الاوضاع الاجتماعية الفاسدة ، والكشف عن عدم شرعية الحكم البيروقراطى ، وانصرافه عن الاهتمام بشؤون الطبقة الفقيرة التى كانت وما زالت تشكل الاغلبية الساحقة من الشعب العراقى . ولهذا فان القاص يكون ضحية رغبته العارمة فى الوصول الى هدفه الاجتماعى باقصر طريق واسرع سبيل . ولم تكن الخطابية والمباشرية وقفا على القصة فحسب بل كانت صفة يتسم بها الادب العراقى شعرا ونثرا ، وما رأينا ناقدا يتهم الشعر العراقى بالضعف الفنى رغم خطابيته الصارخة . فغرر الشاعر الجواهرى مثلا كانت تزخر بمخاطبة الجماهير العراقية : فكان يطالب الطبقات العاملة المضطهدة بالنضال ، ويخاطب العامل المتظاهر قائلا :

تقحم فمنذا يخوض المنون
اذا كان غيرك لا يقحم

فاذا تقاعست الجماهير او اذا خيل للشاعر بانها لم تهب لصرخته اخذ يسخر منها بسخرية مرة :

نامى جياع الشعب نامى
حرستك الهة الطعام
نامى فان لم تشبعى من
يقظة ، فمن المنام
نامى الى يوم النشور ويوم يؤذن بالقيام .

واكثر من ذلك فان الشاعر لا يتوانى عن شتم الجماهير بله توجيهها :

أطبق دجى اطبق ضباب
اطبق جهاما يا سحاب

اطبـــق عـــلى المعـزى يـــراد
يراد بها على الجوع احتـــلاب

أطبـق عـلى الديدان ملتهمـا
فيـا فيـــك الرحـــــاب

لـم يعرفـوا لـون السمـــاء
لفرط ما انحت الرقـــــاب

ومع كل مباشرية القصيدة العراقية وبالرغم من جميع ما تتصف به من روح تعليمية وعظية ، فان الشاعـر العراقي لم يتهم يوما بالركاكة او الضعف .

ترى أهو الفرق بين طبيعة الشعر والقصة بحيث نعد الخطابية عيبا في القصة ولا نعتبرها كذلك في الشعر؟ ام أن للشعر العربي تقليـد اقـدم وارسخ من القصة الوافدة علينـا حديثا ؟

اما الاتجاه التعليمي والوعظي فقد كان ينتج عنه القسر في تركيـــب الاحداث لاثـــارة استجابات نفسية معينة لدى القارىء قد لا تترك اثرا بعيد الغور في النفس ، وكان يسمح ان يقاطـع القـاص سير الحـدث القصصي بين الفينة والاخرى ليطل من بين السطور ويلقى بمواعظـه وحكمه . وهذا الاتجـاه التعليمي هو الاخر صفـة يتسـم بهـا الادب العربي المتمثل اساسا في الشعـر منذ القديم . فحتى القصائد الغزلية لم تكن في منجى من حكم الشاعـر ومواعظه ، ومن منا لا يتذكر قـــول الشاعر :

ليت هندا انجزتنا ما تعـــد
وشفـت انفسنـا ممـا تجـد

واستـبدت مـــرة واحـــدة
انما العاجـــز من لا يستبد

فالشطر الاخير هو حكمة خالصة تلقى استحسانا من السامع العربي وتنسجم مع ذوقنا وتقاليدنا الادبية.

ولم يكن بمقدور القاص العراقي حينما كان يزاول نوعا ادبيا جديدا ان يعمل بمعزل عن تراثه الادبي .

وبينما يذهب معظم الباحثين الى أن ضعف الاقصوصة العراقية في تلك الفترة ناتج عن عدم استكمال القاص لادواته الفنية وعن اسلوب السرد التقليدي والتقرير الصحفي والروح الوعظية التعليمية اللذين اشرنا اليهما ، يكاد ينفرد الناقد عبد الجبار عباس في رد ضعف الاقصوصة العراقية فنيا الى محتواها والى المواضيع التي عالجها كتابها ، فهم لم يولوا المشكلات النفسية والفلسفية اهتماما يذكر بل انصب اهتمامهم على المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كان يعانيها الشعب العراقي «انذاك .

ويقول عباس « ... ان روائع الادب القصصي هي التي تجمع بين كافة ابعاد التجربة الفنية وطبقاتها الاجتماعية والسيكولوجية والفلسفية في تركيبة واحدة ينتفي معها التفاضل بين هذه الابعاد ، وان القصاص الحق من لا يأسره جانب دون آخر، بل يكتشف ما بينها من صلات وتفاعل في شريحة خصبة معقدة او عبر الانتقال من القضايا الاجتماعية الى آفاق ارحب .. وهو انتقال لا يفترض هبوط مستوى القصاص أو ارتفاعه بل قيمته رهن بما يتحقق خلاله ..»(26) .

ومع اتفاقنا المبدئي مع عباس فاننا نود ان نذكر بأن طبيعة المرحلة التي كان يمر بها الشعب العراقي انذاك هي التي املت على القصاص العراقي النزعة الواقعية من حيث اختيار الشخصيات وانتقاء الاحداث مما ادى الى تركيز عنايته على المشكلات الاجتماعية الانية الملحة وتضاؤل اهتمامه بالمشكلات النفسية والفلسفية التي كان يعد معالجتها ترفا فكريا لا محل له قبل ان تحل مشكلة الخبز والسكنى والكساء . وهذا ما يسميه الاستاذ عبد الكريم غلاب « بالمضمون النضالي » للقصة ويسميه البعض الاخر بـ « المحتوى الثوري »

2) الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الثانية وثورة الرابع عشر من تموز 1958 :

بعد حربين عالميتين وحركات عسكرية محلية ، حدثت في العراق تطورات سياسية واجتماعية وفكرية. فقد ازدادت رؤوس الاموال الاجنبية ونما عدد المصانع والمعامل ونشأت طبقة عمالية ، ونشطت طليعتها الواعية المنظمة ، وبرزت مشكلة الهجرة من الريف الى المدن ، كما ازداد اتصال المثقفين العراقيين بالمدنية الغربية عن طريق البعثات الاكاديمية وارتفاع عدد الذين يتقنون اللغات الاجنبية ، وارتفع عدد المتعلمين وقراء الصحف والمجلات ، وازدهرت حركة الترجمة والنشر مما ساعد المثقفين على التعرف باساليب القصة الحديثة في اوربا ، فاعجبوا بمدرسة تيار الشعور المتمثلة بقصص فرجينيا وولف وجيمس جويس والدوس هكسلي ، الذين تخلوا عن الحشو الزائد الذى كانت تزخر به القصة سابقا . وانصرفوا عن غرابة الحدث الى الشخوص وما يعتمل في فكرهم ونفوسهم من احاسيس تجرى بعفوية. فاهمل القصاص تلك القوالب التي كانت تصاغ فيها القصة من بداية وعقدة ونهاية ولجأ الى ما يسمى بتيار الوعي وسلك لابراز هذه النزعة سبلا سيكولوجية مثل الحوار الداخلي والحوار الصامت ورموز العقل الباطني واحلام اليقظة والهذيان والتراكيب النفسية والنمو العضوى للشخصية(27) .

ورغم ان مدرسة تيار الوعي ظهرت في اوربا في الثلاثينات فان تاثيرها بلغ العراق متأخرا نوعا ما. فقد بشر باساليب هذه المدرسة عبد الملك النورى في اواخر الاربعينات وتأثر به وتلقف طريقته عدد من القصاصين اللامعين من امثال فؤاد التكرلى وغائب طعمة فرمان ومهدى عيسى الصقر .

ولكن هذا لايعنى بان كافة كتاب القصة في تلك الفترة قد اتخذوا من تيار الوعى اسلوبا يقتدى ، فالمرحلة هذه تجمع اكثر من اتجاه واحد ، فكان هناك قصاصون لم

يتأثروا به كثيرا كصلاح الدين الناهي وعبد الله نيازى وادمون صبرى ، كما كان هناك من يكتب باكثر من اسلوب واحد كما هو الحال بالنسبة لشاكر خصباك .

ويجب التنبيه الى أن اهتمام القاص العراقى انذاك فى استخدام الطرق النفسية فى كتابة القصة لا يعنى انه عزف عن معالجة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فقد ظل المفكر العراقى امينا لرسالته الاجتماعية ، ملتزما بمبادئه السياسية ، مناضلا من اجل مستقبل افضل وعيش رغيد . ولكن القصه فى هذه الفترة اصبحت تطرق موضوعات سياسية بشكل غير مباشر . فعرضت ما يسمى (بالموقف) : الموقف الفكرى ، والفنى المبدئى ، واهتمت بابعاد الحدث دون الحدث ، وجعلته محورا لقضايا لما تزل فى عنفوانها ، فسقط بعضها بالشعائرية بينما نجا بعضها الاخر منها» (28) .

ان هذه الفترة هى التى منحتنا مجاميع قصصية ذات اهمية بالغة فى تاريخ القصة العراقية مثل « نشيد الارض » لعبد الملك النورى و « الوجه الآخر » لفؤاد التكرلى و « مولود آخر » لغائب طعمة فرمان و « غضب المدينة » لمهدى عيسى الصقر و « حياة قاسية » لشاكر خصباك .

3) فترة ما بعد ثورة تموز 1958 أو الفترة المعاصرة :

لقد احدثت ثورة 14 تموز 1958 انقلابا كبيرا فى بنى المجتمع الفوقية وخيل للقصاص العراقى الذى كان يبشر بها ويزهص لها ، بانها احدثت ايضا تغييرات جذرية فى البنى التحتية . ولما كان القاص العراقى فى الفترات السابقة قد حشد جميع ادواته الفنية والفكرية لنقد كل ما يتعلق بالسلطة وتقويضه ، فانه لم يستطع ان يتحول بسرعة الثورة والتغييرات التى احدثتها الى مساهم فى البناء . ولهذا فانه لاذ بالصمت،

وكادت الساحة الادبية ان تخلو من القصة خلال سنوات الثورة الاولى .

ويرى الناقد العراقي فاضل ثامر ، وهو صائب فيما يرى ، «أن القصاص العراقي قبل ثورة تموز 1958 كان يمتلك فهما (نقديا) لوظيفة العمل القصصي . فقد كان يرى في القصة وسيلة (لتعرية) الواقع و (نقده) عبر التركيز على عوامل الحرمان والشقاء والجور التي كان يقاسي منها ابطاله . ولهذا فانه وجد نفسه صامتا بعد الثورة ولم يستطع ان يقدم معالجات جديدة تتلائم والمرحلة الثورية »(29) .

وانتكست ثورة تموز ونشب صراع بين بنى المجتمع الفوقية ، وبدلا من ان تحقق الثورة احلام الشباب في الحرية والانطلاق والسعادة ساد جو الارهاب والقمع وصودرت الحريات الفكرية . وامام هذا الواقع المعقد اصيب القصاصون الشباب بالخيبة والمرارة والاسى ، فراحوا يتخبطون في كوابيس من القلق والعبث والعتمة ، وانصرفوا الى الوان معينة من الاداب الغربية ، فأعجبوا بلا منتمي كولمن ولسن ، وعبثية كاموا ، ومواقف سارتر الفردية ، ورؤى كافكا السوداوية للعالم (30) ، وولد جيل جديد من القصاصين لا يهتم بهموم الفرد العراقي ومشكلاته الاقتصادية والاجتماعية بقدر ما يهتم بهمومه الذاتية ويصور تمزقه وحيرته وضياعه بأسلوب ذاتي يغلب عليه الابهام ويسوده الغموض خوفا من الاصطدام المكشوف او المواجهة الصريحة مع النظام المتعسف . واخذت تتقطع الصلة بين الكاتب والجمهور ، فلم يعد القارىء يتلذذ في قراءة القصة او يستسيغها . يقول القاص الاديب عبد الرحمن مجيد الربيعي في هذا الصدد : « ان طموح القصة الجديدة اكبر من مدارك القارىء الاعتيادي الذي لا يجد لغته ولا همومه فيها . ولهذا يفقد حرارة التعامل معها ، حتى أن القارىء الذي نريده يكاد أن يكون وهميا ، وعلى الغالب ، ان قراء

القصصة الجديدة هم كتابها واصدقاؤهم » (31)

واذا كان محمود احمد السيد هو رائد القصة العراقية فى الفترة الاولى ، وكان عبد الملك النورى هو رائدها فى الفترة الثانية فان عبد الرحمن الربيعى يعتبر رائد القصة العراقية المعاصرة . فقد تزعم مدرسة جديدة من القصاصين الشباب تتميز فى طرحها ومعالجتها لقضايا الانسان العربى وهمومه وتطلعاته . واذا كان الربيعى والقصاصون الشباب الاخرون من امثال موسى كريدى ، ومحمد خضير وعبد الستار ناصر ويوسف الحيدرى وعائد خصباك قد انغمسوا فى بداية تجربتهم الفنية بالذاتية المتطرفة التى كانت اشبه ما تكون بالنرجسية وانساقوا وراء الدون جوانية والحديث عن المغامرات مع النساء التى كانت تعكس خيبتهم السياسية بسبب الاوضاع المنتكسة، فانهم سرعان ما تخلصوا من تلك الموجة السوداوية تحت وطأة الاحداث الكبرى التى قاسى الشعب العربى منها فى حزيران 1967 وفى ايلول 1970 وما تلاها وتنبه هؤلاءالقصاصون الى وظيفة الاديب كانسان وفنان ، واخذوا يعبرون فى اقاصيصهم عن مواقف فكرية واعية من الانسان والعالم تهدف الى خلق انسان حر وعالم جديد . ولعل الفرق بين مجموعة عبد الرحمن الربيعى القصصية الاولى « السيف والسفينة » وبين مجاميعه القصصية اللاحقة مثل « المواسم الاخرى » خير دليل على هذا التطور الذى اصاب الاقصوصة العراقية المعاصرة من حيث المضمون الملتزم .

واذا كانت القصة قد خسرت خلال هذه الفترة بعض جمهورها بسبب انصرافها عن الاهتمام بهموم القارىء وتخليها عن مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فانها حققت كسبا فى مضمار استخدام الاشكال التجريبية والغنائية والذاتية وتطوير تيار الرمز والشعر الذى اغناها بالمواقف

والتحليلات والعمق . وهكذا حقق القصاصون الشباب انعطافا كبيرا في شكل القصة ولغتها ، لم يكن الرواد والتابعون قد سلكوه من قبل الا لماما .

وخلاصة القول ان القصة العربية الممثلة بالقصة العراقية في هذه المحاضرة نشأت بتأثير الاداب الغربية واستفادت من تراث العرب الادبي ، وتحولت تدريجيا من المعالجة المباشرة للمواضيع الاجتماعية والسياسية عن طريق السرد التقريري الى تناول مواقف فكرية وانسانية مستفيدة من اساليب تيار الوعي ومدرسة الشعر والرمز في القصة العالمية

علي القاسمي

للبحث صلة

المصادر

(1) Arcnibald A. Hill, *Introduction to Linguistic Structures,* (New York : Harcourt, 1958), P. 9.

(2) Edward Sapir, Language

(3) Charles Ferguson, « Diglossia, » WORD, X V (1959) PP. 325 - 340

(*) يستخدم زكى نجيب محمود هاتين الكلمتين بنفس المعنى فى ترجمته لكتاب ول ديورانت « قصة الحضارة » (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر 1956)

(4) Encyclopaedia Britannica, 1961, P. 741

(٥) عبد المحسن طه بدر ، **تطور الرواية العربية الحديثة** (القاهرة دار المعارف ، 1963) ص11

(6) A. J. Arberry, in his introduction to *Moderne Arabic Short Stories* by Denys Johnson - Daviers (London : Oxford University Press, 1967) P. VIII.

(7) Archibald A. Hill, op. cit.

(8) A. J. Arberry, op. cit.

(9) توفيق الحكيم ، فى مقابلة معه نشرت فى مجلة المجاهد الجزائرية ، العدد 657 بتاريخ 18 مارس 1973 ص 27 .

(10) عبد الكبير الخطيبى ، **الرواية المغربية** ، ترجمة محمد برادة (الرباط : المركز الجامعى للبحث العلمى ، 1971) ص 96 .

(11) مقابلة صحفية مع نجيب محفوظ نشرت فى مجلة **الف باء** العراقية ، العدد 213 بتاريخ 13 ايلول 1972 ، ص 46 .

(12) Ali M. Cassimy and W. McClung Frazier, *Modern Iraqi Short Stories* (Baghdad : Ministry of Information, 1971) PP. 18 - 19.

(13) الدكتور سنان سعيد ، « حرية الصحافة حتى عام 1917» **المثقف العربي** ، العدد 3 ، اب 1971 ، ص 25 .

(14) في مقدمته لمجموعة **رجال وظلال** لمير بصري ، ص 11 .

(15) عبد القادر حسن أمين ، **القصص في الادب العراقي الحديث** ص 34 .

(16) ياسين النصير « من الحلم الذاتي الى الواقع الموضوعي » فصل من كتاب **دراسة في اساليب القصة العراقية** ، **نشرت في مجلة الاقلام** ، العدد 7 ، 1972 ص 59 .

(17) عبد الاله أحمد ، **نشأة القصة وتطورها في العراق** ـ بغداد : مطبعة شفيق ، 1969 .

(18) عبد الاله أحمد ، المصدر نفسه ، ص 73 .

(19) محمود احمد السيد « نزعة من نزعات الادب القصصي التركي ، هدم التقاليد » جريدة الاستقلال ، العدد 1095 ، السنة 7 ، 5 تموز 1927 ، استنادا الى عبد الاله أحمد في نشأة القصة وتطورها في العراق . ص 97 .

(20) عبد الجبار عباس ، **مرايا على الطريق** (بغداد : وزارة الاعلام ، ب ت) ص 119 .

(21) Sylvan Barnet, Morton Berman William Burto, A Dictionary of Literary Terms (London : Constable, 1964) PP. 130 - 131

(22) و (23) ألن تيت ، **دراسات في النقد** ، ترجمة عبد الرحمن ياغي (بيروت : فرانكلين 1961) ص 20 .

(21) Sylvan Barnet, Morton Berman, William Burto, A Dictionary of Literary

(25) عبد الاله احمد ، **نشأة القصة وتطورها في العراق** ، ص 77 ـ 81 .

(26) عبد الجبار عباس ، المصدر نفسه ، ص 133 ـ 134 .

(27) عبد الرحمن مجيد الربيعي « الغرس في ارض بوار » **الاقـــلام** العدد 7 ، 1972 ، ص 13 ـ 14 .

(28) ياسين النصير ، « من الحلم الذاتي الى الواقع الموضوعي » ص 57 .

(29) فاضل ثامر ، « علامات في طريق تطور القصة العراقية » في **قصص عراقية معاصرة** ، دراسة ونقد : فاضل ثامر وياسين النصير (بغداد : مطبعة دار السلام 1971) ص 23ـ24

(30) ياسين النصير ، « نظرة على واقع القصة القصيرة فى العراق » فى المصدر السابق ص 13 - 14 .

(31) عبد الرحمن مجيد الربيعى ، « الفرس فى ارض بوار » ص 17

من ريحانة الكتاب

لابن الخطيب

(713 ـ 776 هـ)

كتب الزواجر والعظات

تحقيق :

الدكتور محمد كمال شبانة

تقديم :

لعل من الاوفق ـ قبل أن ننشر هذه الكتب لاول مرة ـ أن نسبق ذلك بالحديث ـ فى اجمال غير مخل ـ بلمحة خاصة بالمؤلف ، ثم تعريف بمؤلفه « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، وما يتبع هذا من الماما بأهم النسخ التى رجعنا اليها فى تحقيق تلك الرسائل ، وأخيرا نأتى الى ترجمة للمعنى بالرسالة الاولى من « كتب الزواجر والعظات » التى بعث بها لسان الدين ابن الخطيب اليه ، وهو « الخطيب ابن مرزوق » معاصره . وذلك على نحو ما عودنا القارىء ، حينما نقدم اليه شيئا من التراث ..

المؤلف :

لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على بن أحمد ، السلمانى الأصل ، اللوشى الولادة ، الغرناطى التربية والمرتع ، المغربى النزوح والوفاة .

ولد ـ رحمه الله ـ بمدينة لوشة LOJA فى 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313م) وتربى فى أحضان أسرته التى عرفت بالاصالة علما وجاها ، ونشأ فى العاصمة غرناطة ، حيث تلقى بها دراسته على أيدى جهابذة العلماء

والادباء يومئذ ؛ فقد كانت العاصمة النصرية حينئذ أعظم مركز للدراسات العلمية والادبية فى ذلك الجزء الغربى من العالم الاسلامى .

وكان من الطبيعى أن يتأثر لسان الدين سياسيا بحكم منصب والده ، الذى شغل وقتئذ منصب الوزارة فى بلاط سابع ملوك بنى نصر ، يوسف بن اسماعيل ابن الاحمر (733 – 755 هـ / 1333 – 1354 م) فلما توفى الوالد دعى ابن الخطيب الابن ليشغل منصب أبيه وهو فى ريعان الشباب (28 عاما) كأمين سر اولا لاستاذه رئيس ديوان الانشاء ابو الحسن على ابن الجياب ، ثم تقلد ديوان الانشاء بعد وفاة شاغله ، وأظهر من البراعة والكفاءة فى هذه المناصب ما جعله أهلا لثقة السلطان المذكور ، ويتحدث ابن الخطيب عن تلك الفترة فى « الاحاطة » فيقول : « فقلدنى السلطان سره ولما يستكمل الشباب، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة الى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى الى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه(1) » وبهذا يصح أن نطلق على هذه الفترة من حياة ابن الخطيب السياسية خاصة الفترة الذهبية (741 – 755 هـ / 1340 – 1354 م) وكانت فى فجر حياته ، وعنفوان شبابه .

ولما توفى سلطانه يوسف الاول يوم عيد الفطر 755 هـ (19 اكتوبر 1354 م) وخلفه فى الملك ولده الغنى بالله محمد الخامس ، أبقى هذا على وزير والده ابن الخطيب فى بلاطه ، وأسفره بدوره الى سلطان المغرب يومئذ

---

(1) المقرى فى « نفح الطيب » جـ 3 ص 44 .

ابى عنان المريني عام 755 هـ ، أى عقب توليه مقاليد أمور المملكة ، فحقق لسان الدين نجاحا ملحوظا فى تلك السفارة ، ولعل ابرز مظاهر هذا ما كان من توثيق عرى الصلات بين غرناطة والمغرب ، وتوالى العون الحربى من فاس ؛ لمقاومة أطماع قشتالة وأرجوان النصرانيتين للاستيلاء على آخر معاقل المسلمين يومئذ « غرناطة » .

وهكذا احتل ابن الخطيب مكانة مرموقة من بلاط الغنى بالله ، حيث جمع فى عهده بين وزارة السيف ووزارة القلم ، فلقب بـ « ذو الوزارتين »، ويمكن اعتبار هذه الفترة امتدادا للفترة الذهبية من حياته ، فقد نوه بها صاحبنا فى « الاحاطة » أيضا ، فقال : « ولما هلك السلطان (يعنى يوسف الاول) ضاعف ولده خطوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى ، الى أن كانت عليه الكائنة ، فاقتدى فى أخوه المتغلب على الامر ، فسجل الاختصاص ، وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض على ، فكان ذلك .. وتقبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى(2) » .

ويرمى لسان الدين بـ «الكاينة » المذكورة تلك الثورة التى تزعمها أخو السلطان الغنى بالله ، والمسمى الامير اسماعيل ، فكان من نتيجة ذلك نفى ابن الخطيب مع سلطانه المخلوع الى المغرب ، وبقى به قرابة ثلاث سنوات (760 ـ 763 هـ / 1358 ـ 1361 م) بمدينة سلا ، حيث انقطع للبحث والتاليف، بعد أن وفر له بنو مرين يومئذ وسيلة المقام أمنا ورغد عيش ، فكانت هذه الفترة من حياة مؤرخنا فترة الخصوبة الثقافية ، ولعل من مظاهرها مؤلفاته وأبحاثه طيلة هذه المدة .

---

(2) المصدر السابق .

وعاد السلطان الغنى بالله مرة أخرى الى الاندلس اثر انقلاب ضد أخيه « المتغلب على الامر » ، وتربع على العرش من جديد بدعوة من الثوار الجدد ، ونادى وزيره ورفيق النفي ابن الخطيب ، فوصل هذا الى « غرناطة » ليحتل سابق حظوته ، بيد أن تلك الحظوة لم تدم طويلا ، فقد شعر لسان الدين بما كان يحاك حوله من دسائس ، وينسج من سعايات للايقاع بينه وبين الغنى بالله ، الامر الذى اضطر معه وزيرنا الى أن يحزم أمره على مغادرة الاندلس، ثم اللجوء الى المغرب نهائيا، وكان منه ذلك على صورة فتحت الباب على مصراعيه للمتقولين والمناهضين له ؛ فقد استأذن ابن الخطيب السلطان فى التفتيش على الثغور والشواطىء الاندلسية ، مما أوغر صدر الغنى بالله اذ تبين خديعته..

وحل ابن الخطيب لاجئا سياسيا على المغرب ، وكان على عرشه حينئذ السلطان ابو سالم المرينى ، حيث أكرم وفادته ، وأقطعه الاراضى ، ورتب له الرواتب ، ولكن تقلبات الاحداث بالمغرب منذ ذلك الحين ، واسهام « غرناطة » في جوانب من هذه التقلبات ، بغية اقصاء بعض الامراء المرينيين المناهضين لسياسة بنى الاحمر ، ثم ما كان من تتبع بلاط بنى نصر لخطوات لسان الدين، ومطالبتهم برأسه .. كل ذلك كان كفيلا فى النهاية ـ عندما واتت الظروف لصالح السلطان الغنى بالله فى فاس ـ بأن يقبض على ابن الخطيب، وتكون عاقبته على النحو المعروف ، من مساءلة حول ما اتهم به من زندقة ، وما ألصق به من الحاد ، فكان أن أفتى الفقهاء بموته شرعا ، وكان هذا فى أواخر عام 776 هـ ، حيث خنق بمحبسه ، ثم أحرق ، ودفن ـ رحمه الله ـ قرب باب المحروق (لا نسبة بين اسم هذا الباب ومصرع ابن الخطيب) فى فاس . وقد أمكن للمقرى صاحب « نفح الطيب » الاستدلال على القبر بعد فترة من الحادث المؤسف .

هذا ، ويعد ابن الخطيب موسوعة علمية نادرة ، ولاسيما فى أخريات العصر العربى بالاندلس ، ومؤرخا يكاد يكون فريدا ، وخاصة فى فترة عز فيها التأريخ بفعل الاضطرابات التى كانت تجتازها الاندلس بالذات يومئذ وناهيك بمؤلفاته العديدة المتنوعة(I) والتى أربت عن الستين ، بيد أن ما قدر له أن يبقى منها يقل عن هذا ، وقد نشر بعض منه تراثا انسانيا أفاد منه الباحثون شرقا وغربا ـ فكان لسان الدين بذلك حقيقا بتنويه المستشرقين والمؤرخين ، القدامى منهم والمحدثين .

الريحـانـــة :

اذا كانت « الاحاطة » من أهم وأضخم مؤلفات ابن الخطيب التاريخية ، فان « ريحانة الكتاب » لتحتل نفس المكانة من بين مؤلفاته الادبية ، فوق ان الكتاب يتضمن رسائل تاريخية ذات أهمية خاصة ، وقد تحدث المؤلف نفسه عن « الريحانة » فى مقدمتها ، ولنترك له مهمة التعريف بهذا الكتاب عندما يذكر : « وقسمتها الى حمدلة ديوان ، وتهنئة اخوان ، وتعزية فى حرب

(I) راجع على سبيل المثال : ابن الخطيب من خلال كتبه ـ للفقيه التطوانى (تطوان1954م) .

الدهر عوان ، وفتوح يمليها الملوان ، ومخاطبة اخوان ، ومقدمات آنق من شعب بوان(1) ، وغير ذلك من غرض وألوان ، صنوان وغير صنوان .. والآن فلتأت بما وعدت ، وحل عقال ما اعتقدت ، بحول الله ، وتنوع أغراض هذا الريحان المنتشق ، الزكية العبق ، الى تحميد ثبت فى صدور بعض ما ينسب الى من المصنفات ، وما ألقى من الصدقات والبيعات ، ثم الى كتب الفتوحات ، ثم الى التهانى بالمكيفات ، ثم الى التعازى بالنائبات ، ثم الى كتب الشكر على الهدايا الواردات ، ثم الى الاستظهار على العداة ، ثم الى كتب الرسائل والشفاعات ، ثم الى تقرير المودات ، ثم الى جمهور الاغراض السلطانيات ، ثم الى مخاطبة الرعايا والجهات ، ثم الى ظهائر الامراء والولاة . ثم الى ما خطبت به على نفسى ارباب المناصب الرفيعة والهيئات .. ثم الى جمهور الاخوانيات ، ثم الى رسائل الفكاهات والدعايات ، ثم الى المقامات فى الاغراض السلطانيات المختلفات ، ثم الى بعض من اوصاف الناس فى التواريخ المسجعة والصلات ، ثم الى الزواجر والعظات ، والمذكرات والموقفات (2) .. »

هكذا رأينا كيف اكتست «الريحانة» أهمية أدبية تاريخية بما اشتملت عليه من مصنفات ، وفصول مختلفة منوعة . وقد تم تحقيق أجزاء منها ونشرت ، ويبدو أن المؤلف قام بجمع مواد هذا الكتاب فى عصر الغنى بالله محمد الخامس ، عندما وزر له بغرناطة للمرة الثانية ، وذلك من واقع تواريخ بعض الرسائل الواردة بالريحانة .

ويجدر بنا أن نشير الى أهم نسخ الريحانة التى رجعنا اليها لتحقيق « كتب الزواجر والعظات » تلك التى وردت فى نهاية الريحانة وخاتمتها ،

---

(1) شعب بوان مكان فى فارس قرب شيراز ، يوصف بكثرة المياه والاشجار ، وقد وصفه المتنبى ، منوها بتساقط أشعة الشمس من خلال أوراق الاشجار على الارض ، وكأنها الدنانير ، فقال :

غدونا تنفض الاغصان فيه ... على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى ... وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها فى ثيابى ... دنانير تفر من البنان

راجع : العرف الطيب ، فى شرح ديوان أبى الطيب ـ لليازجى ، ص 7 ص 603 ـ 612

(2) مخطوط الريحانة بدار الكتب المصرية (4 سن) .

وقد رمزنا لكل نسخة بالرمز المميز :

أ ـ نسخة الاسكوريال ، وهى كاملة ، وبحالة جيدة ، تقع فى مجلد كبير ، يتكون من 281 لوحة مزدوجة من الحجم الكبير ، قد كتبت بخط أندلسى باهت ، وتحمل رقم 1825 من فهرس الغزيرى ، وكان نسخها فى شوال من عام 888 هـ . فهى بهذا التاريخ القديم والقريب من عهد المؤلف الى حد ما ـ أحق بالرجوع اليها فى تحقيقنا لهذا الجزء من مشتملاتها . وقد رمزنا اليها بالرمز « أ » .

ب ـ نسخة كاملة بالخزانة الملكية بالمغرب ، تقع فى مجلدين من الحجم المتوسط ، أولهما اشتمل على 222 لوحة مزدوجة ، بكل منها 21 سطرا ، ويقع الثانى فى 215 لوحة مزدوجة ، وبنفس الحجم ، وقد كتب كلا المجلدين بخط مغربى واضح ، وتحمل هذه النسخة بمجلديها رقم 2195 ، وقد اتخذنا لها رمز « م » .

جـ ـ نسخة كاملة فى الخزانة العامة بالرباط من المكتبة الكتانية ، وهى عبارة عن مجلد ضخم ، يحتوى على 609 صفحة من الحجم الكبير ، بكل صفحة 25 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى جميل ، وتحمل هذه النسخة رقم 331 ك . ولنترك لها نفس الرمز « ك » .

د ـ نسخة مكتبة « الجلاوى » بالخزانة العامة فى الرباط ، وهى قديمة قد بتر جزء من أولها ، وتقع فى 664 صفحة من الحجم المتوسط ، بكل صفحة 17 سطرا ، ويحتمل أن تكون هذه النسخة حديثة ، نظرا لخطها المغربى الحديث . ورقمها 10 ج ، ونرمز لها برمزها « ج » .

هـ ـ نسخة مكتبة الجزائر الوطنية ، وهي عبارة عن قسم كبير من الريحانة ، بحيث تحتوى على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، وهو النصف الثاني من الريحانة ، حيث تبدأ هذه النسخة بالفصل الذى عنوانه : « جمهور الاغراض السلطانيات » ، ورقم التسجيل بالمكتبة هو 2010 ، ونرمز لها من جانبنا بالرمز « ز » .

و ـ نسختان بدار الكتب المصرية :

الاولى ـ يوجد منها الجزء الاول ، وبعض الجزء الاخير ، فى مجلدين ، وبخط مغربى ، فى اثنائها ثقوب واضطراب ، وهذان الجزءان مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان فى 309 لوحة ، ورقمها بالدار 19875 ز ، ونرمز لها هنا بالرمز « ص » .

الثانية ـ بها نقص يسير من الخطبة ، أولها بعد الديباجة .. وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد أفانينه المعشوقة ، بريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب ... الخ . فى مجلدين كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزايين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية برقم 524 أرب ش ، ويقعان فى 650/460 صفحة ، ومسطرتهما 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز ، ورمزنا لهذه النسخة هنا « هـ » .

ونعود الى نسخة الاسكوريال المعتمدة للتحقيق ، فنقول : ان مسطرتها 15 سطرا بكل صفحة من لوحاتها المزدوجة ، وقد شغلت « كتب الزواجر والعظات » موضوع التحقيق اليوم 20 لوحة من نهاية المخطوط ، وهى أربع رسائل بهذا المضمون ، أولاها كتبها لسان الدين ابن الخطيب الى معاصره

الخطيب ابن مرزوق ، وهى الرسالة الوحيدة من بين الاخريات التى نص فى ديباجتها على اسم صاحبها ، أما الثلاث الاخر فقد تعمد اغفال ذكر اصحابها ، مكتفيا بقوله فى بعضها « الى بعض الفضلاء » وفى البعض الاخر لم يذكر شيئا من هذا أو ذاك . وقد سطر المؤلف رسائله هذه عامة بما طبع عليه فى هذا المجال من جنوح الى المحسنات البديعية ، قد تكلف أثناءها هذه القيود اللفظية ، مضمنا اياها الكثير من ابيات الشعر ، منها ما ينسب اليه ، ومنها ما جاء به اقتباسا فى مناسبته . والغاية التى هدف اليها فى جملتها هو الترغيب والترهيب ، والتزهيد فى متاع الدنيا ، مستشهدا فى كثير من أفكارها بأحداث الدهر ونكباته ، جاعلا من تجربته الشخصية مجالا للتنظير فى هذه الحياة ، واضعا هذه التجربة فى متناول الاستيعاب ، عبرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، وسنلحظ من خلال عرض هذه الرسائل مقدار الصلة التى كانت تربط ابن الخطيب بمعاصريه الذين حرر اليهم هذه الكتب الفريدة ، فهم بين وزراء وقضاة وكتاب ، قد جمعتهم الاحداث التى عاشوها وعايشوها ، بل لقد مر كل منهم بما يشبه فى الجملة نفس الظروف التى مر بها الآخر ..

وفيما يتصل بأغراض « كتب الزواجر والعظات » هذه نرى أن تلك الاغراض قد سبق بها ابن الخطيب من أدباء وشعراء المشرق ، وخاصة ابان العصر العباسى كما سنذكر ، بل ان التذكير بالآخرة ، وحث الهمم للتزود لها ، والاشعار بالوعد والوعيد فى يوم الحساب ، كل هذا وأمثاله قد طرقه أدباء العرب الجاهليون ، ومنهم ـ على سبيل المثال ـ فى الميدان الخطابى « قس بن ساعدة الايادى » والمعروف بخطبته الشهيرة التى منها : « أيها الناس ، اسمعوا ، وعوا ، واذا وعيتم فانتفعوا ؛ من فات مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .. » الى آخر ما جاء بها من هذا المضمون . حتى

كان العصر العباسى بطغيان مظاهر الحضارة والمدنية ، وانغماس السواد من الشعوب الاسلامية فى ملذات الحياة ، مما دفع بطبقة خاصة من الادباء والشعراء ـ ولاسيما الفلاسفة منهم ـ الى الجنوح نحو ادب الحكمة والموعظة وتذكير الناس بيوم الحساب ، وقد اشتهر من بين هؤلاء « أبو العتاهية » إسماعيل بن القاسم (130 ـ 211 هـ) فى عصر الرشيد ثم الامين والمأمون ؛ فقد عد ما قاله فى الزهد والامثال من اجود ما قال ، ويمتاز عن غيره ـ فى هذا اللون ـ بقلة تكلفه ، وسهولة الفاظه ، حتى كادت تخرج الى حد الابتذال، ولما سئل فى ذلك كانت حجته انه يقصد الى العظة والزهد ، فينبغى أن يكون شعره مفهوما لدى الناس على السواء ، وقد اقتفى أثره فى ذلك بعض الشعراء فى المشرق والمغرب ، فمن قوله يعظ الرشيد :

لا تامن الموت فى طرف ولا نفس ولو تسترت بالابواب والحرس

واعلم بأن سهام الموت قاصدة لكل مدرع منا ومترس

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس

وعلى هذا ، فيمكن اعتبار لسان الدين ابن الخطيب من الادباء الذين تأسوا فى هذا اللون الادبى بأبى العتاهية وأضرابه ، وكان مما أفاض به فى ذلك تلك الرسائل الادبية التى بعث بها الى الخواص من أصدقائه المعاصرين ، والتى نحن بصدد البحث فيها الآن ، مضافا الى هذا أشعاره التى نظمها ـ فى نفس الغرض ـ فى المناسبات الخاصة ، ومنها قصيدته قبيل مصرعه ، حينما توقع مصيره المحزن :

بعدنا وان جاورتنا البيوت وجئنا بوعظ ونحن صموت

وانفاسنا سكنـــت دفعـــة كجهـر الصلاة تـلاه القنـوت

وكنا عظامـا فصرنا عظامـا وكنا نقوت فهـا نحن قـــوت

وكنـا شموس سماء العـــلا غربن فناحت عليـها البيـوت

فكم خذلت ذا الحسام الظبـا وذو البخت كم جدلته البخوت

وكم سيق للقبر فى خرقـة فتى ملئت من كساه التخـوت

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب وفـات ، ومن ذا الذى لا يفوت ؟!!

فمن كان يفـرح منهـم لـــه فقل: يفرح اليوم من لايموت(I)

الخطيب ابـن مـرزوق :

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبى بكر بن مرزوق، الملقب بشمس الدين ، والمعروف بالخطيب . ولد بتلمسان عام 710 هـ ، وتربى بها ، ثم صحبه أبوه الى الحج ، وأثناء هذه الرحلة تسنى له الجلوس الى نخبة من علماء المشرق ، فأخذ عنهم دروس الشريعة والادب واللغة ، ثم عاد عام 733 هـ ليجد السلطان أبا الحسن المرينى محاصرا لتلمسان حتـى استولى عليها ، فتقرب اليه وفى نفسه طموح ، فأسند اليه امامة المسجد الذى انشأه هناك ، ولم يترك ابن مرزوق مناسبة عند السلطان الا واغتنم فرصة مدحه ، فتوطدت علاقته به ، حتى أضحى من خواصه المقربين ، ولعل من مظاهر ذلك أنه رافقه فى « معركة طريف » بالاندلس (7 جمادى الاولى

(I) ابن خلدون فى « العبر » جـ 7 ص 342 والمقرى « ازهار الرياض » جـ I ص 231

741 هـ/30 اكتوبر 1340 م) ثم أوفده على رأس سفارة الى الانفوش الحادى عشر ملك قشتالة لابرام الصلح ، بعد الهزيمة التى منى بها الجيش المغربى والاندلسى اثر تلك المعركة . وبقى ابن مرزوق أثيرا هكذا حتى توفى أبو الحسن المرينى ، وتولى بعده ابنه ابو عنان ، ولكن ابن مرزوق لم يصادف عنده سابق مكانته عند والده ، فانقطع للعبادة بعض الوقت ، الا أن طموحه دفعه الى الاتصال ببنى عبد الواد بغية التزلف اليهم ، بيد أن هؤلاء لم ينسوا له مواقفه السابقة ضدهم عند السلطان أبى الحسن ، فزجوا به فى السجن، ولبث به حتى أطلق سراحه فانطلق نحو الاندلس ، وهناك اتصل بلسان الدين ابن الخطيب وزير دولة بنى نصر يومئذ ، فأعانه على أمره ، واستصدر له ظهير تعيينه خطيبا للمسجد الاعظم بغرناطة .

هذا ، وقد استدعاه السلطان أبو عنان المرينى عام 754 هـ بعد استرجاع هذا لتلمسان ، وصار فى طليعة بلاطه طيلة اربع سنوات ، حتى أوفده سفيرا الى السلطان الحفصى ابن يحيى ليخطب له منه ابنته ، ولكن التوفيق لم يحالف ابن مرزوق فى هذه المهمة ، فكان نصيبه السجن بعد عودته ؛ اذ ترامى الى سمع ابى عنان أن هذا الفشل يرجع الى عدم استغلال سفيره لنفوذه المعروف يومئذ لدى الحفصيين ، وظل بالسجن قرابة سنتين . ثم افرج عنه ليعاود سابق مغامراته السياسية عند السلطان ابن سالم المرينى ، وتمكن بدهائه من أن يصبح من كبار مستشاريه ورفاقه ، واستمر هكذا فترة لم تطل ، فقد استولى الوزير ابو عبد الله على مقاليد الحكم ، وخلع السلطان أبا سالم ، وبالتالى قبض على ابن مرزوق ، وألقى به فى السجن .

وتبعا لما تضمنته هذه النبذة من حياة هذا الرجل ، ومدى الصعاب والعقبات التى صادفت حياته ـ وهو المعروف بثقافته وعلمه ، ـ الى جانب

عدم قناعته بما يسره الله اليه ـ يعقد كثير من المؤرخين والنقاد مقارنة كبيرة بينه وبين صديقه ومعاصره لسان الدين ابن الخطيب . الذى يكاد يتفق معه في تلك الظروف ، وهذه الاتجاهات النفسية . وربما فسرنا الصلة التى كانت قائمة بين الرجلين على هذا الاساس ، ولعل المتصفح للرسالة التى نقدمها الان يرى من فحواها ملامح الاحوال التى كان يجتازها ابن مرزوق ، والتى رأى فيها ابن الخطيب صوره من سابق تجاربه ، وخلاصة مواقفه السياسية فى كنف هذا أو ذاك ، فأخذ يمحض النصح لصديقه من واقع تجاربه في هذه الميادين .

النـــص :

« كتـــب الـزواجـر والعظـات »

« فمن ذلك فى مخاطبة ابن مرزوق :

سيدى ، الذى يده البيضاء تذهب بشهرتها المكافآت ولم تختلف فى مدحها الافعال ولا تغايرت فى حمدها الصفات ، ولا تزال تعترف بها العظام الرفات . أطلقك الله من أسر كل الكون ، كما أطلقك من أسر بعضه ، وزهد فى سمائه وفى أرضه ، وحقر الحظ فى عين بصيرتك بما يحملك على رفضه.

اتصل بي الخبر السار من تركك لشأنك ، واجناء الله اياك ثمرة احسانك ، وانجياب ظلام الشدة (I35 : ب) الحالك عن أفق حالك . فكفوت ارتياحا لانتشاق رضا الله الطيب الأرج ، واستعبرت لتضاؤل الشدة بين يدى الفرج ، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر ، ويدعوه القضاء فيأتمر ، انما هو فيء وظل ليس له من الامر شيء .

ونسأله ـ جل وتعالى ـ أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها ، وأول معارج نفسك التى تقربها من الحق وتدنيها . وكأننى ـ والله ـ أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك ومضادتها ، ولا حول ولا قوة الا بالله لطيفك . وأنا أنافرك الى العقل الذى هو قسطاس الله فى عالم الانسان ، والآلة لبث العدل والاحسان ، والملك الذى يبين عنه ترجمان اللسان . فأقول :

ليت شعرى ما الذى غبط سيدى بالدنيا وان بلغ من زبرجها(I)

(I) الزبرج : بكسر الزاى وسكون الباء ، معناه : الزينة من وشى أو نحوه ، والجمع منه زبارج ، وفعله زبرج بزنة فعلل . بمعنى حسن الشيء وزينه .

الرتبة العليا ؟ وأفرض المثال بحال اقبالها ، ووصل حبالها ، وخشوع جبالها، وضراعة سبالها !! التوقع المكروه صباح مساء ، وارتقاب الحوالة التى تزيل من النعم البأساء ، لزوم (136 : أ) المنافسة التى تعادى الاشراف والرؤساء ؟ الترتب العدل حتى على التقصير فى الكتب ، وظعينة جار الجنب ، وولوع الصديق باحصاء الذنب .؟

ألنسبة وقائع الدولة اليك ، وأنت فى عرى ؟

الاستهدافك للمضار التى تنتجها غيرة الفروج ، والاحقاد التى تضطبنها(I) ركبة السروج ، وسرحة المروج ، ونجوم السماء ذات البروج ؟

ألتقيدك لتقصير ، فما ضاقت عنه طاقتك ، وصحت اليه فاقتك ، من حاجة لا يقتضى قضاءها الوجود ، ولا يكيفها الركوع للملك والسجود ؟

ألقطع الزمان بين سلطان يعبد ، وأفكار للغيوب تكبد ، وعجاجة شر تلبد ، ولقبوحة تخلد وتؤبد ؟

ألوزير يصانع ويدارى ، وذى حجة صحيحة يجادل فى مرضاة السلطان ويمارى ، وعورة لا توارى ؟

ألمباكرة كل عايب حاسد ، وعدو مستاسد ، وسوق ـ للانصاف

(I) تضطنبها : تحملها ما بين الكشح والابط ، وفعله ضبن بفتحتين ، بمعنى حمله فوق الضبن ، والضبن : بتشديد الضاد مع الكسر وسكون الباء ما بين الكشح والابط كما ذكرنا ، وتبعا لهذا يقال : فلان فى ضبن فلان ، أى فى كنفه .

والشفقة ـ كاسد ، وحال فاسد ؟

اللعقود تتزاحم بسدتك ، مكلفة لك غير (136 : ب) ما فى طوقك ؟

فان لم يقع الاسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟

الجساء ببابك لا يقطعون زمن رجوعك وايابك ، الا بقبيح اغتيابك ، فالتصرفات تمقت ، والقواطع النجومية توقت . والألافى تبث ، والسعايات تحث ، والمساجد يشتكى فيها البث . يعتقدون أن السلطان فى يدك بمنزلة الحمار المدبور ، واليتيم المحجور ، والاسير المأمور ، ليس له شهوة ولاغضب، ولا أمل فى الملك ولا أرب ، ولا موجدة لأحد كامنة ، وللشر ضامنة !! وليس فى نفسه عن أى نفرة ، ولا بازاء ما لا يقبله نزوة أو طفرة !!

انما هو جارحة لصيدك ، وعاث فى قيدك ، ودالة لتصرف كيدك ، وأنك علة حيفه(1) ، ومسلط سيفه .

الشرار يسلمون عيون الناس(2) باسمك ، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك . قد تنخلهم الوجود أخبث ما فيه ، واختارهم السفيه فالسفيه ؟ اذا الخير يستره الله عن الدول أو يخفيه ، ويقنعه بالقليل فيكفيه . فهم يمتاحون بك (173 : أ) ويولونك الملامة ، ويفتحون عليك القول ، ويسدون

---

(1) حيفه : ظلمه .

(2) يسملون عيون الناس : يفقأونها ، والسمال هو من يقوم بهذا العمل . والتعبير هنا على سبيل المجاز ، والقصد أن هؤلاء الاشرار يرتكبون افعالهم ضد الاخرين باسم المخاطب هنا .

طرق السلامة . وليس لك ـ فى أثناء هذه ـ الا مالا يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صداعه ـ من غداء يشبع ، وثوب يقنع ، وفراش ينيم ، وخديم يقعد ويقيم !!

وما الفائدة فى فرش تحتها جمر الغضا ؟ ومال من ورائه سوء القضا ؟ وجاه يحلق عليه سيف منتضى ؟ واذا بلغت النفس الى الالتذاذ بما تملك ، واللجاج حول المسفك ، الذى تعلم أنها فيه تهلك ـ فكيف تنسب الى نبل ، أو تسير من السعادة فى سبل !! وان وجدت فى القعود بمجلس التحية ، بعض الاريحية ، فليت شعرى أى شىء زادها ، أو معنى أفادها ، الا مباكرة وجه الحاسد ، وذى القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستأسد !! وشعرت ببعض الايناس ، فى الوكوب بين الناس ، هل التذت الا بحلم كاذب ، أو جذبها غير الغرور مجاذب ؟

انما راكبك من يحدق الى الحلبة والبزة ، (I37 : ب) ويستظل مدة العزة ، ويرتاب اذا حدثت بخبرك ، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ، ويمنعك من مسايرة أنيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمر الشر لك ولرئيسك . وأى راحة لمن لا يباشر قصده ، ويسير ـ متى شاء ـ وحده ! ولو صح ـ فى هذه الحال ـ لله حظ وهبه زهيدا ، أو عين الرشد عملا حميدا ، لساغ الصاب ، وحفت الاوصاب ، وسهل المصاب . لكن الوقت أشغل ، والفكر أوغل . والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه الكمية . أما ليله ففكر ونوم ، وعتب يجر الضرائر . وأما يومه فتدبير ، وقبيل ودبير ، وأمور يعيا بها تبير ، ولفظ لا يدخل فيه حكيم كبير ، وبلاء مبير (I) ، وأنا ـ بمثل ذلك ـ خبير .

(I) مبير : مهلك ، ويقولون عن الدنيا « دار البوار » أى : الهلاك .

والله يا سيدى ـ ومن فلق الحب ، وأخرج الأب(1) ، وذرأ ما مشى وما دب ، وهدأ وأكب ، وسمى نفسه الرب ـ لو تقلق المال الذى يجره هذا الكدح ، يرى سقيطه هذا القدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدر بدره (138 : أ) بالمناكب . لا ورثه عقب ، ولا خلص فيه محتقب ، ولا فاز به سافر ولا منتقب ، والشاهد الدول ، المشائيم الاول . فأين الرباع المنتقاة ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر المختلسات ؟ وأين الودائع المؤملة ، والامانات المحملة ؟

تأن الله بتثبيرها ، وادناء نار التبار من دنانيرها ، فقلما تلقى أعقابهم الا عرى الظهور ، مترفقين بجرايات الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يطردون من الابواب التى حجب عندها آباؤهم ، وعرف منها اباؤهم ، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم . لم تسامحهم الايام الا فى ارث محرره ، أو حلال مقرره ، وربما محقه الحرام ، وتعدى منه المرام . هذه ـ أعزك الله ـ حال قبولها المرغوب فيه ، ومآلها مع الترفيه ، وعلى فرض أن يستوفى العمر فى العز مستوفيه . وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم ، وحوت بغى يبتلع ويلتقم .

وطبق يحجب الهوا ، ويطيل فى الترب الثوى ، وثعبان قيد يعض الساق ، (138 : ب) وشؤبوب(2) عذاب ، يمرق الابشار الرفاق ، وغيلة

---

(1) الأب : معناه هنا ما كان رطبا أو يابسا من العشب .

(2) الشؤبوب : فعله « شأب » مثلث الفتحات ، والجمع منه « شآبيب » ، وهى لغة بعدة معان ، منها : الدفعة من المطر ، وشدة حر الشمس ، وحد كل شىء ، وشدة اندفاع كل شىء ، وأول ما يظهر من الحسن . ولعل قصد المؤلف هنا هو : الحد المندفع ، بدليل السياق والوصف له .

يهديها الواقب الغاسق ، ويجرعها العدو الفاسق . فصرف السوق ، وسلعته المعتادة الطروق ، مع الأفول والشروق .

فهل فى شىء من هذا مغتبط لنفس حـرة ، أو مـا يسـاوى جرعـة حـال مـرة ؟؟

واحسرتا للاحلام ضلت ، وللأقلام زلت !! ويالها من مصيبة جلت !!

ولسيدى أن يقول : حكمت على باستثقال الموعظـة واستجفـائـها ، ومراودة الدنيا بين خلانها وأكفائها ، وتناسى عدم وفائها .

فأقول : الطبيب بالعلل أدرى ، والشفيق ـ بسوء الظن ـ مغرى . وكيف وأنا أقف على السحاءة بخط يد سيدى من مطارح الاغتفال ، ومثاقف النوب الثقال ـ وخلوات الاستعداد، للقاء الخطوب الشداد، ونوثر الاسنةالحداد وحيث يجمل بمثله الا يصرف ـ فى غير الخضوع لله ـ بنانا ، ولا يثنى ـ لمخلوق ـ عنانا . وأتعرف أنها قد ملت الجو والدو ، وقصدت الجماد والبو . تقتحم أكف أولى الشمات ، (I39 : أ) وحفظة المذمات ، وعوان النوب الملمات ؛ زيادة فى الشقاء ، وقصدا جريا من الإختيار والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء(I) ، ومن النفاق على أشهر من البلغاء . فهذا يوصف بالامامة ، وهذا ينسب فى الجود الى كعب بن مامة ، وهذا يجعل من أهل الكرامة ، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهله ، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ، الى ما أحفظنى ـ والله ـ من البحث عن السموم ، وكتب

(I) العنقاء : تطلق على طائر مجهول تخيله العرب ، يقول شاعرهم :
نبئت أن المستحيل ثـلاثـة الغول والعنقاء والخل الوفى

النجوم ، والمذموم من المعلوم . هلا كان من ينظر في ذلك قد قوطع بتاتا ، وأعتقد أن الله قد جعل من الخير والشر ميقاتا ، وأنا لا أملك موتا ولا نشورا ولا حياة ، وأن اللوح قد حصر الاشياء محوا واثباتا . فكيف نرجو لما منع منالا ، أو نستطيع ـ مما قدر ـ افلاتا ؟؟!!

أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقررة نتحول اليه، وبينوا لنا الحق نعول عليه ، الله الله يا سيدى في النفس المرشحة ، والذات المحلاة بالفضائل الموشحة ، والسلف الشهيز (I39 : ب) الخير ، والعمر المشرف على المرحلة بعث حث السير . ودع الدنيا لأهلها ، فما أوكس حظوظهم ! وأخس لحوظهم! وأقل متاعهم ! وأعجل اسراعهم ! وأكثر عناءهم ! وأقصر اناءهم !

ما ثم الا ما رأيت ، وربما تعى السلامة

والناس اما حائر أو حائد يشكو ظلامة

واذا أردت العز لا تزرى بنى الدنيا قلامة

والله ما احتقب الحريص سوى الذنوب أوالملامة

هل ثم شك فى المعاد الحق أو يوم القيامة

قولوا لنا ما عندكم ـ بالله ـ أهل الخطابة والملامة

وان رميت بأحجارى ، وأوجزت المز من أشجارى ، فوالله ما تلبست اليوم بشيء قديم ولا حديث ، ولا استأثرت بطيب فضلا عن خبيث . وما أنا الا عابر سبيل(I) ، وهاجز مزعى وبيل ، ومرتقب وعد أقدر فيه الانجاز .

(I) التعبير جاء اقتباسا من الحديث النبوى الشريف : « كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » تزهيدا فى الدنيا ، وتحذيرا منها ..

وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز . قد فررت من الدنيا كما نفر من الاسد ، وحاولت قطع المداخلة حتى (140 : أ) بين روحى والجسد . فلم أبق عادة الا قطعتها ، ولاجنة للصبر الا ادرعتها . أما اللباس فالصوف ، وأما الزهد فى ما بأيدى الخلق فمعروف ، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف . ووالله لو علمت ان حالى هذه تتصل ، وعراها لاتنفصل ، وترتيبى هذا يدوم ، ولا يجرنى الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم ـ لمت أشفى ، وحسبى الله وكفى .

ومع هذا يا سيدى ، فالموعظة تتلقى من لسان الوجود ، والحكمة ضالة المؤمن ببذل المجهود ، ويأخذها ـ من غير اعتبار بمحلها ـ المذموم ولا المحمود . ولقد أعملت نظرى فيما يكافىء عنى بعض يدك ، أو ينتهى فى الفضل الى امدك ، فلم أر فى الدنيا لك كفاء ، لو كنت صاحب دنيا ، ووجدت بذل النفس قليلا من غير شرط ولا ثنيا ، لما الهمنى الله ـ جل جلاله ـ الى مخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة فى قالب الخفا ، ولا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنسين بها المنهمكين ، وينظر غوارها الفادح بعين اليقين، (140 : ب) ويعلم أنها الموسة التى حسنها زور ، وعاشقها مغرور ، وسرورها شرور . تبين لى أنى قد كافأت صنيعتك المتقدمة، وخرجت عن عهدتك الملتزمة. وأمحضت لك النصح الذى يعز ـ بعز الله ـ ذاتك ، ويطيب حياتك ، ويحيى مواتك ، ويريح جوارحك من الوصب ، وقلبك من النصب ، ويحقر الدنيا وأهلها فى عينيك اذا اعتبرت ، ويلاشى عظائمها لديك اذا اختبرت ، كل من بقع عليه عينك حقير قليل ، وفقير ذليل ، لا يفضلك بشىء الا باقتفا. رشد ، أو ترك غى ، أثوابه النبيهة يجزدها الغاسل ، وعروته يفصلها الفاصل ، وما له الحاضر الحاصل ، يعيث فيه الحسام الناصل . والله ما تعين

للسلف ، ولا يصير المجموع الا الى التلف ، ولا صح من الهياط والمياط(1) . والصياح والعياط ، وجمع القيراط الى القيراط ، والاستظهار بالموزعة والاشراط ، والخبط والخباط ، والاستكثار والاغتباط ، والغلو (141 : أ) والاشتطاط ، وبناء الصرح وعمل الساباط ، ورفع العماد وادارة الفسطاط ، الا ألم لم يذهب القوة ، وينسى الآمال المرجوة . ثم نفس يصعد ، وسكرات تتردد ، وحسرات ـ لفراق الدنيا ـ تتجدد ولسان يثقل ، وعين تبصر الفراق الحق وتمقل . « قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون(2) ثم القبر وما بعده ، والله منجزوعيده ووعده . فالاضراب ، والتراب التراب .

وان اعتذر سيدى بقلة الجلد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن رازق ، وبيده من التسبب ما يتكفل بامساك ارماق . أين النسخ الذى يتبلغ الانسان بأجرته ، فى كن حجرته ، لا ، بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمعرة السؤال ، والله أقوم طريقا ، وأكرم فريقا ، من يد تمتد الى حرام ، لا تقوم بمرام ، ولا تؤمن من ضرام ، أخربت فيه الحلل وقلبت الاديان والملل. وضربت الابشار ، ونحرت العشار ، ولم يصل منه على يد واسطة السوء المعشار ، ثم طلب عند الشدة ففضح ، وبأن (411 : ب) شؤمه ووضح . الله طهر منا ايدنا وقلوبنا، وبلغنا من الانصراف اليك مطلوبنا، وعرفنا بمن لايعرف غيرك ، ولا يسترفد الا خيرك ، يا الله .

---

(1) الهياط والمياط : تعبير يطلق على حالة الاضطراب والمجيء والذهاب . وفعل الاول : هاط بمعنى ضج وأجلب ، والمصدر الهيط والهياط .

(2) سورة « ص » آية : 67 ـ 68 .

وحقيق على الفضلاء – ان جنح سيدى منها الى اشـارة ، وأعمـل فى اجتلائها اضباره(I) ، أو لبس منها شارة ، أو تشوف لخدمة امارة – الا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن تاس ، ولا يغتروا بسمة ولا خلق ولا لباس . فما عدا عما بدا ، تقضى العمر فى سجن وقيد ، وعمرو وزيد ، وضر وكيد ، وطراد صيد ، وسعد وسعيد ، وعبد وعبيد . فمتى تظهر الابكار ، ويقر القرار ، وتلازم الاذكار ، وتشام الانوار ، وتنجلى الاسرار ، ثم يقع الشهود التى تذهب معه الاخبار ، ثم يحق الوصول الذى اليه من كل سواه القرار ، وعليه المدار . وحق الحق الذى ما سواه فباطل ، والفيصل الرحمانى الذى بابه الابد هاطل ، ما شابت بخاطبتى هذه شايبة تريب .

ولقد محضت لك ما يمحضه للحبيب الحبيب ، فتجمل الـذى جملـت (I42 : أ) عليه الغيرة ، ولا تظن بى غيرة . وان لم يكـن قـدرى مكاشفـة سيادتك بهذا البث ، فى الاسلوب الغث ، فالحق أقدم ، وبناؤه لا يهدم . وشأنى معروف فى مواجهة الجبابرة ، على حين يدى – الى رفدهم – ممدودة ، ونفس من النفوس المتهافتة عليهم معدودة !! وشبابى فاحم ، وعلى الشهوات مزاحم . فكيف اليوم مع الشيب ، ونصح الجيب ، واستكشاف العيب ! وانما أنا اليوم على كل من عرفنى – كل ثقيل ، وسيف العدل فى كفى صقيل. أعذل أرباب الهوى ، وليس النفوس فى القبول سواء ، ولا لكل مرض دواء ،

(I) الاضبارة : الحزمة من السهام او الصحف ، والجمع أضابير ، وفعله : ضبر مثلث الفتحات .

وقد شفيت صدرى ، وان جهلت قدرى فاحملنى ، حملك الله عـــلى الجادة الواضحة ، وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة ، والسلام » .

حققـه : كمـال شبـانـة

الادب المغربى ايام المرابطين والموحدين

1268 ـ 1069 = 667 ـ 462

بقلم : الدكتور محمد الاخضر

تشتمل هذه الحقبة على الدولتين العظيمتين ، المرابطية (462 ـ 541 = 1069 ـ 1146) والموحدية (542 ـ 667 = 1147 ـ 1268) ، حيث عرفت الثقافة المغربية نموا كبيرا واشراقا لامعا ، فتعمقت جذور أكثر العلوم ونبغ فيها أئمة لاينازع فى مقدرتهم أحد . وهكذا برز في النحو ابو موسى الجزولى ، (المتوفى عام 601 = 1204) أول مؤسس للمدرسة النحوية المغربية بكتابه القانون(1) ، وشيخ ابن معطى احد السابقين الى نظم الالفية فى قواعد اللغة العربية(2) ، كما برز في التفسير والحديث القاضى عياض السبتى (المتوفى عام 544 = 1149) ، وتابع الفقه المالكى نموه رغم ما كان من رجوع موقت الى المذهب الظاهرى بأمر من الخليفة يعقوب المنصور الموحدى(3) .

كانت المراكز المهمة للمذهب الاول ايام الموحدين سبتة وفاس ومراكش

---

(1) أنظر ع. كنون ، **النبوغ** ، 1 : 152 ـ 153 .

(2) قلد ابن مالك صاحب الالفية المشهورة فى النحو ابن معطى واعترف له بفضل السبق ولو أنه زعم أن منظومته احسن من سابقتها ، فقال فى المقدمة :

وتقتضى رضى بغير سخط ... فائقة الفية ابن معطى
وهو بسبقى حائز تفضيلا ... مستوجب ثنائى الجميلا

(3) أنظر م. الحجوى ، **الفكر السامى** ، 4 : 9ـ12 و 73ـ74 .

حيث يدرس الى جانب أصول الفقه علوم الجدل والحديث والتصوف والقراءات بينما نجد المذهب الثانى الذى يمثل الرجوع الى الاصلين الاساسيين فى الاسلام ، وهما الكتاب والسنة ، على رأسه الخليفة يعقوب المنصور نفسه الذى ألف فى الموضوع **مجموعة فتاو** . وامتاز في هذه الناحية علماء أجلة ، امثال على بن محمد بن خيار ، وابراهيم بن احمد بن هرون المرادى المعروف بابن الكماد ، وابن دحية السبتى(4) .

وانجبت العلوم الاخرى فى هذا العصر أئمة مرموقين ، من أمثال ابن باجة(5) ، وأبى العباس السبتى(6) فى الفلسفة ؛ وأبى مروان بن زهر(7) ، وابن شمعون الاسرائيلى(8) فى الطب ؛ وأبى عبد الله الادريسى(9) ، وعبد الواحد المراكشي(10) فى الجغرافيا والتاريخ ، حيث ألف أولهما نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، والثانى **المعجب فى تلخيص اخبار المغرب** ؛ وابن الياسمين(11) الرياضى الكبير مؤلف **الارجوزة فى الجبر** ، والشاعر المبدع.

وقد ازدهر الاب بفضل تحقيق الوحدة السياسية ، والتقدم الاجتماعى والثقافى من جهة ، وبفضل الاحداث التالية من جهة أخرى :

أ ـ هجرة طائفة مهمة من القرطبيين القاطنين بافريقيا الى المغرب على اثر

---

(4) أنظر ك. بروكلمان ، **تاريخ الادب العربى** ، 1 : 310 ، **الملحق** 1 : 544 .

(5) المرجع الاخير ، 1 : 830 .

(6) أنظر ع. كنون ، **النبوغ** ، 1 : 150ـ151 .

(7) أنظر ك. بروكلمان ، تاريخ الادب العربى ، 1 : 486 ، الملحق 1 : 890 . د. م. ا. 2 : 456 أ ـ 457 ب

(8) أنظر ع. كنون ، **النبوغ** ، 1 : 158 .

(9) أنظر ك. بروكلمان ، **ملحق** ، 2 : 153 .

(10) أنظر ع. كنون ، **سلسلة مشاهير رجال المغرب** ، عدد 28 .

(11) أنظر ك. بروكلمان ، **تاريخ الادب العربى** ، 1 : 471 ، **الملحق** . 1 : 858 .

الاضطرابات التي عرفها المغرب الادنى على يد البربر .

ب ـ اقامة بني حمود في بعض المراكز الساحلية بالمغرب ، مثل سبتة وطنجة ، حيث كانت لهم شهرة أدبية كبرى .

ج ـ اعتقال المعتمد بن عباد بأغمات وما نتج عنه من تقوية الحركة الأدبية بالمغرب سواء بما انتجه شعراء هذا البلد ، أو بما تغنى به الشعراء الآخرون، من اندلسيين ومغاربة ، في مدح الاميز الاسير وندب حظه العاثر .

وقد اصطبغ الأدب أيام المرابطين بصبغة تكاد تكون اندلسية محضة ، نتيجة للوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية التي تحققت بين العدوتين . وبالعكس من ذلك أخذ الأدب طابعه المغربي الخاص أيام الموحدين ، وصارت عاصمة مراكش مطمح أنظار العلماء المغاربة والاندلسيين ، من أمثال ابن زهر، وابن رشد(I2) ، وابن الطفيل(I3) . وامتاز أدب هـذا العصـر بالبساطة والطابع الديني ، وتكاثرت فنونه وتنوعت موضوعاته ، وبرزت أسماء عدد من كبار الشعراء والكتاب(I4) .

الشـعـــر

تناول الشعر جميع الموضوعات ، وعلى رأسها الحماسة والفخر والمـدح والرثاء ، الى جانب موضوعات مستوحاة من الاحداث السياسية والدينية التي

(I2) أنظر ك بروكلمان ، **تاريخ الادب العربي** ، I : 384 ، **الملحق** ، I : 662 .

(I3) المرجعان السابقان ، I : 460 ، I : 83I .

(I4) للاطلاع على مزيد من التفصيل أنظر هـ بيريس ، **الشعر في فاس** ، في مجلة **هسبريس** ، I8 ، الربع الاول ، I : 9ـ40 .

عاشتها الدولتان القويتان : المرابطية والموحدية .

1 ـ أتى المثل النموذجي لذلك في القصائد التي انشدت في اليوم المشهود الذي جلس فيه عبد المومن بن علي يتقبل بيعة الاندلسيين بجبل الفتح ، ويتبين من ضروب النقد التي ابداها هذا الخليفة الذي كان هو ايضا شاعرا أن الخلال المطلوبة تتمثل في الدقة والايجاز الذين هما الطابع البارز للموهبة الادبية . وكان أول من أنشده ابن حبوس الفاسي (المتوفى عام 570 = 1174) قصيدته التي مطلعها :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعـــدلا

وتلاه الطليق المرواني منشدا :

ما للعدا جنة أوقى من الهرب

فصاح عبد المومن : الى اين ؟ الى اين ؟

فقال الشاعر :

.. **أين المفر وخيل الله في الطلب ؟**

وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمتـه سماء الله بالشهـب

حدث عن الروم فيأقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعـرب

ولقد قاطع عبد المومن أيضا الشاعر محمد بن أبي العباس السمعاني حين أنشد قصيدته التي مطلعها :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبد المومن بن علي

فطرب الخليفة لهذا المطلع واستعاده أكثر من مرة ، ثم أمر الشاعر

بأن يقتصر عليه وأجازه بألف دينار قائلا : لقد قلت فى هذا كل شىء (15) .

2 ـ وجدت هذه الخلال أيضا فى الشعر الغزلى الذى يقدم أبو حفص بن عمر الاغماتى (المتوفى عام 603 = 1206) نماذج منه فيما أنشده فى التشبيب بجمال الاعرابيات :

مـها القفـر لا دمية المرمـر وفى العـرب لا فى بنى الاصفر

بنفسى يعافير تلك الخيـام ومسرحهـا فى النقـا الاعفـر

ملاعب يصبوا اليها الحكيـم ويسلب فيها فـؤاد الجـرى

وفيها الظبـاء بنات الاسـود غيارى متى بغمت تـزأر (16)

وفى قوله فى مليحـة :

هذا فؤادى أقصدته الاسهم من ذا يرى تلك الجفون ويسلم

يا غرة حكم الجمال لها على شمس الضحى وأصاب فيمايحكم

يحكى الجآذر جيدها ولحاظها هيهات دون العالم المتعلم(16)

3 ـ ألهمت الطبيعة الشعراء فى كل زمان ، لكن شعراء هذا العصر عرفوا اكثر من غيرهم كيف يلاحظونها ويصورونها ، كما فعل القاضى عياض (المتوفى عام 544 = 1149) فى وصف خامات زرع بينها شقائق نعمان هبت عليهـا ريـح :

---

(15) أنظر م ـ ابن تاويت و م ـ عفيفى ، **الادب المغربى** ، ص 150 ـ

(16) أنظر ع. كنون ، **النبوغ** ، 3 : 56–57 ـ

انظر الى الـزرع وخاماتـــه تحكى وقد ماست أمام الرياح

كتيبة خضـراء مهـزومـــة شقائق النعمان فيها جراح(17)

فهذا التشبيه المزدوج رغم بساطته جميل ، ويلاحظ التأثير الديني في شعر هذا العصر ، اذ البيت الاول ينظر الى الحديث الشريف : « مثـل المومن مثل الخامة من الزرع تفيؤها الرياح » .

4 ـ وفيما عدا الطبيعة توجد أوصاف رائعة مثيرة لبعض الاشياء المادية، في مثل أبيات الشاعر أبي بكر بن تافلويت الذي وصف سيفا هـزه عـلي بن يوسف بن تاشفين ارتجالا :

هززت حسامـــا فشبهتـــه غديـــرا من المـــاء لكن جمـد

فلمـا بـدا لـي افـرنـده لهيبـا من النـار لكـن خمـد

فلولا الجمود ولولا الخمـود لسال لدى الهز أو لاتقـد(18)

5 ـ أما القصائد المتعلقة بالمدح والتهنئة والاستعطاف فكثيرة وطويلة جدا ، لموضوعاتها المألوفة المبتذلة ، فهي تارة في مدح ملك بمناسبة انتصار في حرب ، أو ازدياد مولود ، أو حلول عيد أو شفاء من مرض ، وتارة في مدح صديق في سائر المناسبات السعيدة . ولو حاولنا الاتيان بنماذج منها لخرجنا عن غرض الاختصار الذي اردنا أن تكون عليه هذه النظرة العامة السريعة .

---

(17) انظر ع. كنون ، **النبـوغ** ، 3 : 99 .

وانظر أيضا عن التأثير الديني لـ بروفنسال ، **التعرف على المغرب** ، ص 127ـ128 ، و هـ بيريس ، **الشعر في فاس** ، ص 9ـ40 .

(18) انظر ع. كنون ، **النبـوغ** ، 3 : 99 .

6 ـ وبالمقابل نجد الشعر الخاص بالنوادر والنكت أكثر أصالة ، اذ يلقى الشاعر نفسه فى سعة ليبرهن عن قدرة مبدعة وفكر خصب . فهذا أبو العباس الجراوى (الشوفى عام 609 = 1212) يقول فى هجو أهل فاس :

مشى اللؤم فى الدنيا طريدا مشردا يجوب بلاد الله شرقا ومغربا

فلما أتى فاسا تلقاه أهلها وقالوا له أهلا وسهلا ومرحبا

وهذا الامير سليمان الموحدى (المتوفى بعد عام 600 = 1203) يلغز فى القلم والدواة :

وميت برمس طعمه عند رأسه اذا ذاق من ذاك الطعام تكلما

يقوم فيمشى صامتا متكلما ويرجع للقبر الذى منه قوما

فلا هو حى يستحق كرامة ولا هو ميت يستحق ترحما(19)

كل هذه الموضوعات التى استعرضناها سريعا قد اتت فى دائرة القصيدة التقليدية وفق أوزان بحور العروض المتعارفة ، ولو أن المؤرخين وأصحاب التراجم أخبروا بظهور الموشح والزجل فى هذا العصر بالمغرب الا انهم لم يثبتوا نماذج منهما .

النثر

نجد هنا نفس الفنون والموضوعات النثرية التى عرفناها فى العصر

(19) أنظر ع. كنون ، **النبوغ** ، 3 : 245 ـ 248 .

السابق ، سواء فى النثر المطلق أو المسجع . ومن أمثلة النوع الاول مقالة القاضى عياض فى البلاغة النبوية . « .. وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الافضل ، والموضع الذى لايجهل، سلاسة طبع وبراعة منزل وايجاز مقطع ، ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف . أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم وعلم السنة العرب، يخاطب كل أمة بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتهاحتى كانكثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله، من تأمل حديثه وسيزه علم ذلك وتحققه ؛ وليس كلامه مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى المشعار الهمدانى وطهفة النهدى وقطن بن حارثة العليمى والاشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من اقبال حضر موت وملوك اليمن ..» 20)

ويكون النثر المسجع فى الكتابات ذات الطابع الرسمى ، مثل التحميد والصلاة والخطب ، أو فى الخطابات الشخصية مثلما نجده فى الرسالة التى وجهها القاضى ابو موسى بن عمران (المتوفى عام 578 = 1182) الى ولد له يدرس بفاس :

« الى ولدى فلان ، هداه الله وصانه ، وجمله بالعلم والتقوى وزانه ، كتبته اليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله تعالى تتيسر الامور ، ويتكاتف السرور . واذا وجدتكم على ما أحبه من أدوات الحفظ والاداء ، ولزام آداب العقلاء ، جازيتكم بما يرضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنيكم . وقد أجمعت الائمة على أن الراحة ، لا تنال بالراحة ، وأن العلم ، لا ينال براحة الجسم ، فادرس ، ترؤس ، واحفظ ، تحفظ ، واقرأ ترق . ومهما ركنت الى الدعة ،

(20) المصدر السابق ، 2 : 277 .

كنت فى أهل الضعة ، وما رأيت الناس مجتمعين على حمده فاجتلبه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذمه فاجتنبه ، والاعدل الاقسط ، أن تسلك السبيل الاوسـط .

وما المرء الا حيث يجعل نفسه ففى صالح الاعمال نفسك فاجعل

ويلاحظ هنا الانتقال من الخطاب بصيغة الجمع فى صدر الرسالة الى صيغة الافراد فى آخرها .

أما التحميد والصلاة والخطب فانها جميعا متشابهة شكلا ومضمونا ، وليس فيها أية ميزة جديدة تستحق التمثيل لها ، وكذلك الرسائل الادارية التى كان يحررها الكتاب باسم الخلفاء ويبعث بها الى كبار رجال الدولة (21).

وقد تقدمت المحاضرة تقدما كبيرا فى هذا العصر وبخاصة أيام عبد المومن ؛ وبما انها تأتى عفوا دون سابق تهييء ، فهى تدل على مدى ما وصل اليه المغرب من تقدم فى الميدان الثقافى أيام الموحدين . ومن أمثلتها :

« خرج عبد المومن يوما مع وزيره أبى جعفر بن عطية متنزها الى بعض بساتين مراكش ، فمر فى طريقه بشارع من شوارع المدينة ، فاذا بطاق فى دار عليه شباك قد قابله منه وجه جارية ، كأنه الشمس الضاحية ، قد بادرت الطاق تنظر اليه ، فنظر اليها عبد المومن فأعجبه حسنها ، وحلت من قلبه كل محل ، فقال ارتجالا :

---

(21) أنظرها فى مختلف المجموعات الادبية ، وبخاصة فى رسائل موحدية ، من نشر د بروفنسال

قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت

فقال ابو جعفر :

حوراء ترنو الى العشاق بالمقـل

وقال عبد المومن :

كأنما لحظها فى قلب عاشقهـا

فقال أبو جعفـر :

سيف المؤيد عبد المومن بن علي»

ومن عجيب المقارنات أن يأمر عبد المومن بقتل وزيره أبى جعفر بن عطية وأخيه أبى عقيل عام 553 = 1158 مثلما فعل هرون الرشيد بوزيره جعفر البرمكى وأسرته .

هكذا يكون هذا العصر الذى دام قرنين كاملين قد عرف ازدهارا كبيرا فى ميدان الادب المغربى نثرا وشعرا ، ونبغ فيه مؤلفون قادرون على أن ينافسوا كتاب المشرق والاندلس .

محمـد الاخـضـر

غرناطة
أو
مغرب شمس العرب

بقلم : عبد الكبير الفهرى الفاسى

لا أعلم بالضبط ماذا كان ـ ولا يزال ـ يشدنى الى غرناطة وحب غرناطة والبحث عن شؤون غرناطة دون غيرها من المدن الاندلسية .

فالدواعى الى حب غرناطة ليست هى الدواعى الى حب قرطبة وكذلك الحوافز الى حب غرناطة ليست هى نفس الحوافز الى حب اشبيلية . ولقد اقمت فى غرناطة اكثر مما اقمت فى قرطبة او فى اسبيلية .

فلكل قاعدة من تلك القواعد الحضارية طابعها الخاص ومن ذلك الطابع تستلهم الحوافز الدافعة بنا الى حب هذه اكثر من غيرها او اختيار تلك دون غيرها .

فالذى يدفعنا الى حب قرطبة فهو ما يمت للفكر والدين بصلات كثيرة

فهي اول قاعدة عربية واسلامية في البلاد وبها جدد بنو مروان شباب دولة الاسلام واسسوا بها دولتهم الثانية والتي قضى عليها التفكك والتخاذل والعنصرية بين عرب وبربر من جهة وبين قيسية ويمنية من جهة اخرى . وادت تلك الخلافات وتلك النزوات الى بروز دويلات الطوائف التي التهمتها الصليبية طعمة سائغة الواحدة بعد الاخرى ولم يبق للاسلام شأن في مواطنها الا بفضل طموح الدول المغربية المتعاقبة على حكم الاندلس وبفضل ايمانها .

اما اشبيلية فلا تخطر ببالك وتتلفظ باسمها الا وتتصور بني عباد الذين كان لهم بها امجاد في جميع المجالات ولكن مجالات الشعر هي التي تبقى عالقة بالاذهان مع صورة المعتمد امير الشعر وشاعر الامراء الذي امتحن بانواع المحن في منفاه . فطابع الشعر في اشبيلية هو طابعها في القديم والحديث وهو الذي نلمسه حين تتفتح اكمام الزهور وبراعم الورود في فصلِ الربيع حين تأخذ أباطيح اشبيلية ومروجها في اكتساء جلاليبها الخضراء السندسية : فالشعر واشبيلية متلازمان تلازم النشوة للراح يستحوذ ذلك على الفكر كلما ذكرناها او عبرنا اليها .

اما غرناطة ، وما ادراك ما غرناطة !! فلعل امرها اعمق من ذلك بل فيه من جميع ما تقدم وزيادة ، شيء يجثم في وعينا ولا نستبينه او نستطيع الافصاح عنه .

فطبيعة مملكة الاسلام الاخيرة في الاندلس هي غير طبيعة اختيها السابقتين . فاكتنافها بين جبال البشارات وجبال شلير لا يبيح لها العيش بغير العمل في الارض والذود عن حياضها حماية لارزاقها لان العدو لم يتأخر عن غزوها الا ريثما يحزم امره بعدما اكتسح الممالك والامارات الاندلسية

الاخرى ويسترد انفاسه . زيادة على اقتناص الفرصة لذلك حتى لا يكون هو الناقض للهدنة او الحلف الذى كان يربط بين بنى نصر الميامين وبين ملوك النصرانية .

ولقد كانت مملكة غرناطة طوال القرنين ونصف لوجودها ميدان عمل وجهاد . اما العمل فقد ادت نتائجه الباهرة بالاسبان السذج البسطاء الى الاعتقاد بان بنى نصر كانوا يسخرون الجن والشياطين لايجاد ما كانوا يعيشون فيه هم ورعاياهم ـ من انواع البذخ والخيرات الطبيعية وما كان لديهم من ذهب وفضة وحرائر وما كان متوفرا فى المملكة من انواع الماكولات والمشروبات وما كان يصدر من ذلك للخارج بما فى ذلك اسبانيا نفسها لفقرها الناشىء عن تقاعس المسيحيين عن العمل والكد والاجتهاد فيه . ومن المعلوم بالضرورى فى التاريخ ان اكتشاف العالم الجديد لم يفد اسبانيا كثيرا كما استفاد منه غيرها بسبب تقاعس الاسبانيين رغما عن الحاجة الملحة . وقد كان هذا الاكتشاف يذر عليها كنوزا من الذهب والفضة كانت تستلمها من موانىء اشبيلية وغيرها لتستقر فى صناديق اسواق الجمهوريات الايطالية المزدهرة(١) او اسواق انجلترا وهولاندة التى كانت تعزف كيف تستغلها استغلالا اقتصاديا بينما كان الاسبان يركنون الى الغزو والفتح ويبتعدون عن العمل وما يجره من مشاق شأنهم فى ذلك شأن بعض العرب الاولين الذين كانوا يميلون بطبيعتهم الى امتشاق السيف والتربع على كراسى الحكم وقيادة الشعوب بدلا من الشغل بين صفوف التجار والمحترفين .

ولقد اباح البذخ الذى وصلت اليه الدولة النصرية لها ما لم يبحه

---

(١) انظر كتاب الاستاذ Fernand Brodel البحر المتوسط ومالقة فى عهد فيليب الثانى وكذلك كتاب الاستاذ Jacques Hens عن جنوة فى القرن الخامس عشر Gènes au XV siècle

لغيرها حيث اخذت منذ تأسيسها في تشييد المباني وتشجيع انواع الحرف التي عليها تقوم الحضارة في ذلك العهد الذي كان فيه العامل الماهر بمثابة الفنان لان عمله كله عمل بيد مرتكز على ثقافة فنية وصناعية متوارثة قابلة للابداع الشخصي : فالعامل هو المهندس المعماري وهو البناء وهو المزخرف والرسام . ورغما عن كون قصر الحمراء البديع كما نعرفه الان ليس في الاصل كله من عمل بني نصر فان احسن ما فيه هو من عملهم لان القلعة الحمراء كانت موجودة قبلهم ، اوى اليها من قبل بنو زيري البرابرة ، واعتصموا بها بعدما كانت مدينة البيرة هي قاعدة الولاية كلها وبها كانت تعرف قبل ذلك.

ولكن مما لاشك فيه هو ان غرناطة كما يتعشقها عارفوها ومحبوها هي غرناطة بني نصر لا غيرها فهم اصحاب تلك الديار والمعاهد وتلك المغاني والربوع سواء ما هو في القلعة الحمراء او في قصرها او في وسط المدينة او في ربضها وكل ما ابتناه الاسبان بعد جلاء العرب عن غرناطة جاء كأنه شعر في عجين او صدأ في وجه مرآة ، ان لم يكن كلفا مشينا في وجه الحسناء .

فجنة العريف وسوق السقاطين كالقيصرية وفندق الفحم والمدرسة الرضوانية وغيرها مما اندثر او تغيرت معالمه ليست الا بقايا معالم التمدين الذي قامت به الدولة النصرية .

ولعل مما يشدنا الى غرناطة اكثر من غيرها هو طبيعتها السحرية في مناخها وهوائها وعلوها المعتدل (700 مترا) وكذلك ما يجمع اقليمها الخصب ـ اقليم القصب ـ مما افترق في غيره من جبل ساحق في علوه تتوج هامته الثلوج شتاءا وقد تستمر صيفا مع انكباب الاقليم على البحر يجعل شواطئه ممتعة وفاتنة للناظرين ، علاوة على أن مناخ الاقليم العظيم والمتنوع يسمح

باقامة اجنة وغراسات دانية القطوف وارفة الافنان يعطر اجواءها شذى الفل والياسمين(1) وزهر الارنج وغيره من رند وورد وانواع الرياحين مما كان بها قبل الفتح العربى ومما جاء به العرب من فارس والشام ومما جناه بـــه الاسبان بعدما اكتشف العالم الجديد مما لم يكن للعرب ولا لغيرهم معرفة به قبل ذلك كالدخان والتين الهندى والقشطة وغيرها كثير .

وهل يمكن ان يتجلى ذلك السحر فى غير الاطار الجميل الذى يتكون من تلال الحمراء ومن البسيط المخضر الجوانب الذى باسفلها والممتد بينها بين جبال شلير المكللة الجبين بثلوجها خصوصا حين افول الشمس الى مغربها ويعلو سهل البقاع(2) الى عنان سمائه ما تطاير فوقه من غبار الارض الذى يثيره الفلاح الاسبانى طيلة عمله اليومى فيتناثر فى الجو وتحيلـــه اشعة الشمس الى نثار من الذهب يبقى الناظر اليه مشدوها وبه ماخوذا كأنه فى عالم ان لم يكن هو الشعر فهو السحر بعينه ..

نعم كان يشدنى الى غرناطة ـ ولايزال ـ من المحاسن مثل هذا الغروب الذى اعتبره وحيدا فى شكله لان الاطار الذى يقع فيه لا يتوفر لغيره فى شتى الافاق التى عرفت فيها الوانا من غروب الشمس كالاستانة وضفاف البوسفور وحدائق المنارة بمراكش الحمراء .

---

(1) سبق لى أن نشرت عدة فصول من الاندلس تحت عنوان عام هو ـ تحت عرائس الياسمين لان الياسمين هو الزهر الذى يغلب وجوده فى تلك الديار حيث يزدهر بسبب المناخ الذى يواتيـــه .

(2) لعل La Vega الاسبانية هى البقاع العربية . وهو مرج غرناطة

ولعل هذا الغروب فى غرناطة بالذات وفى سهل البقاع المخضر اخضرار الامل ، تكتنفه جبال شلير المكللة الجبين بالثلوج المستحيلة الى ركام من الذهب ـ لعل ذلك التجلى لجمال الكون فى هذه البقعة المحظوظة من الدنيا ـ يرمز فيما يرمز اليه الى كون غرناطة مع دولة بنى الاحمر الاشاوس ـ كانت **فى الواقع غروب شمس الامجاد العربية فى يوم العرب الطويل فى الاندلس**(I) .

وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ..

عبد الكبير الفهرى الفاسى

I) **لقد ناف** وجود العرب ـ **كسادة وكصناع** بعد الجلاء ـ على الثمانية قرون وما قارب الشيء اعطى حكمه **ولذلك يمكن ان** نعتبر تلك الفترة يوما من ايام الله **ولكل شيء فى** الوجود **ومنها الاحتلالات نهاية حتمية** والايام تداول بين الناس مهما طال امدها .

الشاعر عاصم بن زيد التميمى «أبـو المخشى»

للدكتور عبد السلام الهراس

اسـم الشاعـر وكنيتـه :

عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدى بن زيد التميمى وهو حفيد الشاعر الجاهلى النصرانى عدى بن زيد العبادى(1) .

واشتهر بكنية « أبو المخشى » غير أن كتابة هذه الكنية ، تختلف من مصدر لآخر(2) ، الأمر الذى أثار بحثا طريفا تعرض فيه صاحبه الدكتور « تيرس » لهذا الاختلاف بتحليل علمى موفق الذى لم يجعله يجزم فيما يخص علاقة حسانة التميمية بعاصم بن زيد . مستفيدا فى كل ذلك بالنصوص المتوفرة لديه ، ومنها ورود كنية « أبا الحسين » فى شعر حسانة بنت عاصم التميمية . وقد حاول الدكتور احسان عباس الخروج من المشكل مع المحافظة على وزن البيت معتبرا أن « أبا الحسين » الواردة فى هذا البيت(3) :

---

(1) جمهرة انساب العرب لابن حزم ص 214 ـ ت عبد السلام هرون 1382 ـ 1962 دار المعارف مصر ، التكملة لابن الأبار مخطوط الخزانة الملكية والخزانة العامة رقم 1705 ص 5 الذيل والتكملة 5/ ترجمة 184 ، المغرب 2/123 ، الاحاطة ص 351 مخطوط الاسكوريـال 1673 .

(2) أنظر المصادر السابقة ـ وابن القوطية 59 ـ نشر د ـ الطباع ـ جذوة المقتبس ترجمة 952 ـ بغية الملتمس ترجمة 1543 ـ انظر الدكتور تيرس فى بحثه عن أبى المخشى ـ مجلة الاندلس ص 294 عدد 26 سنة 1961

(3) نفح الطيب 5/229ـ301 ـ ط محى الدين عبد الحميد .

انى اليك أبا العاصى موجعة أبا الحسين سقته الواكف الديم

معتبرا اياها خطأ من نساخ كتاب نفح الطيب الذى كان المصدر الوحيد للقصيدة التى ورد ضمنه هذا البيت ، وأصلح الخطأ بأبى المخشى(4) ؛ وهو الرأى الذى نميل اليه نحن ونحسبه صوابا اذ نجد الكلمة وردت كذلك سليمة فى مصدر أندلسى ضمنه هذا النص(5) .

وكما تضاربت المصادر فيما يتعلق بكنيته ، فكذلك كان موقفها من أصالته الاندلسية ؛ ذلك أن بعض تلك المصادر تنص على أنه شاعر اعرابى مشهور قديم(6) ، كما يصفه مصدر آخر بأنه كان من أعلام الجند ، ومقدميهم . ويبدو من هذا أنه هو الذى كان صحبة الجند لا والده ، ومعنى ذلك أنه غير أندلسى النشأة ، وانما هو طارىء غير أن مؤرخين ثقاة ينصون على أن الداخل للاندلس والطارىء عليها هو والده زيد(7) . ويعده كل من أبى الأبار وابى عبد الملك من أهل قرطبة ، وقبلهما يقول أبى حزم عند حديثه عن بنى تميم وأنسابهم وفروعهم : « ومن ولده كان الشاعر الاندلسى أو المخشى ..»(8) واعتمادا على هؤلاء فان أبا المخشى شاعر أندلسى أصيل ، وأن الطارىء على الاندلس هو والده الذى دخل اليها مع جند دمشق الذين عرفوا بطائفة بلج ، وذلك سنة 123 هـ 741 م (9) وعندما وزع أبو الخطار الشاميين على النواحى والكور كانت البيرة

---

(4) نفح الطيب 4/167 .

(5) ذكر بلاد الاندلس ص 100 مخطوط رقم 85 ج الخزانة العامة الرباط .

(6) الجذوة والبغية ، نفس الارقام السابقة .

(7) الاحاطة ص 351 اعتمادا على الرازى .

(8) نفس الارقام السابقة .

(9) الاخبار المجموعة 38 — 39 .

ELVIRA مقرا للدمشقيين(1) . وفى شوش استقر زيد ابن يحيى التميمى والد شاعرنا . ولعل هناك ولد له عاصم ، ولكن يبدو أن الأسرة انتقلت الى قرطبة وعاصم لم يبلغ مبلغ الرجال . لان هذا وحده هو الذى يبرر لنا نسبته القرطبية التى نص عليها كل من ابى الأبار وابى عبد الملك ، فليس ببعيد اذن أن يكون قرطبى الدار ، وأن ميلاده ونشأته الأولى كانت بقرية شمرس كما يدلنا على ذلك بيت لابن هبيرة فى هجائه للشاعر(2) .

وقد نشأ نشأة أدبية جعلته ينبغ فى الشعر نبوغا أهله لان يتزعم هذا الفن فى عصره ويملأ جو الاندلس بأشعاره .

ويبدو أن نشأته الاخلاقية كانت تنقصها الرعاية وحسن التوجيه والبيئة الصالحة مما جعله عرضة لانحرافات فى اخلاقه وتعقيدات فى نفسيته ، كانت المسؤولة عن سوء علاقته بالناس وعن مأساته الفظيعة ، ولذلك لم يحجم من ترجم له من القدماء عن وصفه بكونه بذىء اللسان ، متسرعا به الى من لا يوافقه ، هجاء ، مقذعا ، لا يتورع عن قذف نساء أعدائه وأمهاتهم وهتك حرمهم وأعراضهم ، كما كان أفاكا نهابا ، مقداما ، لا يعدم متظلما منه وداعيا عليه ، وذاكرا له بالسوء ؛ وهو مع ذلك جار على غلوائه لايبالى(3) . وهذه الاوصاف المحنطة قلما ظفر بها شاعر اندلسى ، مما يدلنا على البيئة الوخيمة التى كان يتقلب فيها .

---

(1) ابن القوطية 45 ، الحلة السيراء ص 62 ، فجر الاندلس 360 .

(2) المغرب 2/123 ، وقد نستنتج من هجاء ابن هبيرة للشاعر انه اسلم فى سن تجاوزت فترة الختان وان صح هذا فان اباه دخل للاندلس وهو باق على دين النصرانية !

(3) المغرب ج 2/123 ـ الاحاطة 351 .

وكان أصله النصراني ثغرة متاحة يستغلها أعداؤه لهجوه وتعييره والطعن عليه في نسبه . ومن ذلك قول ابى هبيرة(I)،

أقلفتك التى قطعت بشـــوش دعتك الى هـــجائى وانتضائى

وقد يسمح لنا هذا البيت أن نقول : بأن والده زيدا دخل مع طائفة يلج وهو لا يزال على نصرانيته ، وأنه أسلم ، وولده قد شب عن الطوق ، والا فما نرى مغمزا على الشاعر فى مطلق الختان ان لم يكن هذا الختان من نوع خاص وبمناسبة الاسلام .

اتصل الشاعر ببنى أمية على عهد عبد الرحمن الداخل وكان لهذا ولدان : هشام وسليمان ، ولكل من الاميرين حاشيته وبطانته ، على عادة الأمراء ، وتحولت الحاشية والبطانة الى حزب كما انتهى التنافس بين الاخوين الى حرب بعد موت عبد الرحمن . وقد انتصر فيها هشام الذى بويع بالامارة خلفا لأبيـــه .

وكان عاصم منشيعة سليمان الذى يصفه بعض المؤرخين بأنه كان يميل الى اللهو والبطالة والعبث ، وكان اذا حضر مجلسا امتلأ سخفا وهذيانا على خلاف أخيه هشام الذى وصف بالنبل والشهامة والأدب والتقوى والكرم وسمو الاخلاق والغيرة على صنائعه(2) .

كان سليمان شاميا دخل مع والده الى الاندلس فى حين كان هشام اندلسيا وكانت والدته أم ولد اسمها حلل أو حوراء ، ولعل أخلاق سليمان وشاميته مما دفع بالشاعر لان يصبح من اخص جلسائه وحاشيته يغدق

(I) المغرب ج 2/123 .

(2) الاخبار المجموعة 122 ــ 224 . البيان المغربى ج 2/17 ــ 68 ط دار الثقافة لبنان ــ نفح الطيب 334 ــ 334 .

عليه بمدحه وان لم يبخل على هشام ببعض قصائده(I) ولكنه كان معجبا بسليمان ؛ فعندما هزم ابى يوسف الفهرى فى معركة مخاضة الفتح يوم الاربعاء غرة ربيع الاول سنة 168 هـ(2) نرى الشاعر يندفع الى تسجيل هذه المعركة فى قصيدة أشاد فيها ببطولة سليمان(3) :

واذا تساءل عن مواقع معشر	وذويهم طلب الذى لم يقدر
رشد الخليفة اذ غووا فرماهم	بالموبذى بالجهم والمستأزر
وغدا سليمان السماح فانه	جلى الدجى وأقام ميل الأصعر
وهو الذى ورث الندى أهل الندى	ومحا مغبة يوم وادى الأحمر
بعدا لقتلى بالمخائض أصبحت	جيفا تلوح عظامها لم تقبر
فالليل فيها للذباب عرائس	ونهارها وقف لنبش الأنسر
أفناهم سيف مبيد طرفه	فى قسطلونة بل بوادى الأحمر
فلتركبنك ما هربت مخافة	منه فقع يابن اللقيطة أوطر

وان هذا المدح الذى يضفى على سليمان صفات البطولة والندى والباس فى هذه المعركة الخطيرة لمن شأنه أن يثير غيرة هشام ويحفر فى نفسه حزازات ، اذ لم يكن لهشام فى حاشيته من يماثل أبا المخشى الذى كان لشعره أصداء قوية فى أرجاء الاندلس .. وهل ينسى هشام للشاعر تشبيهه لأخيه ، الذى ينافسه ولاية العهد بأنه ليث هصور يهاجم اعداءه حاملا اليهم الموت الزؤام ، ولذلك كان جديرا بأن يرث الندى أهل الندى .

(I) الفتح 334 ـ الحلة السراء 1/42 ـ 43 ، اعمال الاعلام ص 11 .

(2) الحلة السيراء 2/351 ـ 353 .

(3) الاحاطة 351 ـ 352 .

وهو بذلك يشير بطرف خفي الى أنه أحق بولاية العهد ، وكان والدهما عبد الرحمن قد عقدها لهما معا . فلما حضرته الوفاة وهشام بماردة وسليمان بطليطلة ، وكل ابنه عبد الملك وقال له : (I) .

« من سبق اليك من اخوتك فابرأ اليه بالخاتم والأمر فان سبق اليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه ، وان سبق اليك سليمان فله فضل سنه ونجدته وحب الناس له ، فقدم هشام قبل سليمان فكانت الامارة من نصيبه .. »

ان ذلك التنافس بين الاخوين يفسر لنا الآثار الأليمة التي تخلفها في نفس هشام مثل تلك القصائد التي تشيد بسليمان وببطولته واذاعة مناقبه في المحافل العربية بالاندلس ، وينص ابي عبد الملك على ذلك قائلا(2) : « وكان هشام بن عبد الرحمن يشنؤه (أي أبا المخشي) لانقطاعه الى أخيه(3) ويقول ابن الخطيب :

« وكان ـ أي ابو المخشي ـ مع ذلك منقطعا الى سليمان بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية كثير المدح له ، على أنه ما أخلى الأمير هشاما من مدحه وهو مع ذلك لايسل سخينته وحقده عليه لانحطاطه في شعب سليمان أخيه ، وبينهما من التنافس والمشاحنة ما لا شيء فوقه » (3) وهذا يبين لنا مدى تأثر هشام بانحياز الشاعر الى حزب أخيه سليمان لما لشعره من وزن في الصراع لصالح هذا الاخير ، ولذلك كان على سليمان ان يفكر في التخلص من هذا الداعية الخطير وتهديم تلك الدعامة الشعرية التي يعتمد عليها أخوه ، وقد كانت الظروف ملائمة لتنفيذ فكرة الانتقام في أبي

(I) اعمال الاعلام ص II نفح الطيب I/334 .
(2) نفس المصدر والصفحات .
(3) الاحاطة نفس الصفحات .

المخشى لما له من أعداء ، يحيكون له المؤامرات ويحرضون عليه الامير للاستراحة من لسانه الخبيث ، وقد وجد هؤلاء الاعداء فى الجو النفسى الحاقد على الشاعر خير منفذ ليكيدوا له عنده ويدفعوا به لاخراس ذلك الصوت المزعج وتقويض هذا الهجاء الجرىء السليط الذى أزعجهم فى ميدان القول وبزهم فى حلبة الهجاء . فصنع هؤلاء الاعداء أبياتا على لسان خصمهم الشاعر وأنشدوها الامير هشاما وعمدوا الى بيت للشاعر فحرفوه تحريفا بارعا مثيرا لعواطف هشام الغاضبة الحاقدة فجاء كما يلى :

وليس كشانىء ان سيل عرقا يقاب مظلة فيها اعوار

وهذا البيت كان أصله من قصيدة للشاعر فى مدح سليمان ، واستطاع اعداؤه أن يحرفوه ويدسوا فيه هجاء سافرا مقذعا لهشام . وقد حققوا هدفهم اذ أثاروا هشاما اثارة صاخبة ، واغتاظ أشد الاغتياظ عندما زعموا له بأن الشاعر عرض به ولم يرد سواه .. وكان هشام أحول العين ، فانطوى على حقد عنيف(1) عصب عينه وقضى على كل دوافع الرحمة فى نفسه فأصبح لا يفكر الا فى انزال أشد أنواع الانتقام بهذا الشاعر الذى كان بريئا مما نسب اليه ، فاستدعاه اليه بماردة ، وكان هشام واليا عليها فى حياة والده فاستجاب الشاعر لدعوته وخرج اليه من قرطبة رغبة فى عطائه ودون ارتياب فى نيته ، فلما دخل عليه قال له الامير :

« يا أبا المخشى ان المرأة الصالحة التى هجوت ابنها فقذفتها فأفحشت منها قد أخلصت دعاءها لله فى أن ينتقم لها منك فاستجاب لها وسلطنى عليك ، وتأذن بالاقتصاص لها على يدى منك » ، ثم أمر أعوانه فقطعوا لسانه وسملوا عينيه(2) . وهكذا جر عليه لسانه ، وتشيعه لسليمان هذه المحنة

---

(1) الذيل والاحاطة وابى القوطية ص 59 .

(2) الاحاطة 352 .

القاسية التي كانت شديدة على نفسه ..

وقد غضب عبد الرحمن الداخل ـ كما قيل ـ لما حل بالشاعر من انتقام فظيع ورزء شنيع فكتب الى ولده يعنفه ويقبح فعله السيء !!

وظل الشاعر زمنا مشوه الوجه الى أن عولج من تلك الجراح غير انه فقد نور عينيه الى الأبد . أما لسانه فقد انجبر واستعاد الكلام به ، الا تلعثما قليلا ظل يلازمه ويخل بفصاحته طول حياته .

ولكي يخفف الامير عبد الرحمن من وقع الرزء على نفس الشاعر استدعاه اليه فدخل عليه شاعره القديم أعمى يقوده صبي ليقفا بين يديه . ولكنه لم يستطع أن ينشد قصيدته التي نظمها في مدحه وانما اتخذ صبيا ليتولى عنه في الانشاد بعد أن دربه وعلمه على القاء القصائد وانشادها ، وقد مهد للقصيدة بمقدمة مستمدة من تجربته المؤلمة واصفا عماه ، باكيا حياته بكاء مرا ، ومطلع القصيدة :

خضعت أم بناتي للعـــدا اذ قضى الله بأمر فمضى

وكان للقصيدة تأثير عميق في نفس عبد الرحمن الى أن ذرف الدموع فأجزل عطاء الشاعر اذ حباه بألفي دينار وضاعف دية عينيه(I) .

وعندما تولى هشام الامارة بعث الى أبي المخشي فأحضره وكان قد أقلقت جريمته ضميره وأصابه غم بسبب ما حل بهذا الشاعر الحزين

(I) الاحاطة 352 الذيل والتكملة 103 ـ ابن القوطية 59 . وقد ورد في الاحاطة التعليق التالي : قال الرازي : « ويذكر أن قصة أبي المخشي في نبات لسانه لما بلغت مالك بن أنس أشار اليها في فتواه بالتأني بدية اللسان ـ طمعا في نبتها ، وقال يتأنى بالحكم عاما فان نبت اي شيء منه عمل في ديته بحسب ذلك ، فقد بلغني أن رجلا بالاندلس نبت لسانه أو أكثره بعدما قطع فأمكنه الكلام » .

بتدبيره ، فأعطاه الدية مضاعفة .

ولكن هذه العطايا الجزيلة لم تكن لتخفف عن الشاعر شعوره العميق بالمأساة التي أضفت على حياته رداء من الحزن والاسى ، لان مصابه كان أكبر من أن يقدر بمال أو يعوض بثمن . فقد ملأ كل جوانحه فلم يطق تلك الحياة التي أصبح فيها سخرية أعدائه ومهزلة خصومه ، وهو الذي لم يكن هجاؤوا الاندلس يثبتون أمام لسانه الصارم ، ولذلك « عظم عليه مصابه وكثرت في شكواه أشعاره » كما يقول ابن الخطيب ، وهكذا ظلت منابع المأساة ثرة في أعماقه تتدفق شعرا باكيا وأنات آسية ، وقد اقترن بكاؤه على حياته التعسة بأسرته الضائعة المهددة بالتشرد ، والمحاطة بجو من الذلة والمهانة ، ومما ضاعف من حزنه أنه لم يكن له سوى البنات وأم ولهى ؛ كان شعورها بفداحة الخطب أقوى وبعمق المأساة أعنف :

خضعت أم بناتي للعدى اذ قضى الله بأمر فمضى !

وقد اضطرت هذه الزوجة المكلومة أن تتحمل عبء الاسترزاق واعالة زوج عاجز وبنات ضعيفات ، يقول الشاعر :

أم بنياتي الضعيف حويلها تعول امرءا مثلي وكان يعولها

اذا ذكرت ماحال بيني وبينها بكت تستقيل الدهر مالايقيلها(1)

ويبدو ـ ان كان الشاعر صادقا ـ أن اسرته عانت أزمات مادية حانقة ، ولذلك فهو يبث هنا شكواه بضعفه وعجزه عن كفالة بنياته مما القى على الأم المسكينة العبء الثقيل لتعول زوجا كان يعولها بالأمس ، ولكنها كانت تنوء تحت هذا العبء . ان مثل هذا البكاء استدر على الشاعر عطف

(1) ابن القوطية 60 .

الامراء فأكرموه ، فعاد الى بلده « البيرة » حيث اصبح يملك بعض الاراضي كما تدل على ذلك حادثة وقعت لابنته حسانة بعد موته . ولعله لم يعش طويلا بعد نكبته التي نقدر أن تكون حلت به حوالى سنة 170 هـ اى بعد معركة « مخاضة الفتح » التي انهزم فيها أبو الاسود أمام سليمان بن عبد الرحمن سنة 168 هـ كما يصور ذلك أبو المخشي نفسه في قصيدته التي مدح بها هذا الامير . وليس في هذه القصيدة شكوى أو حزن أو اشارة الى عماه ، بل على العكس يدل على الفترة الزاهية من حياته وعلاقته ببني أمية، يوم كان يصول ويجول بلسانه العنيف ، وبناء على ذلك فان الفترة المأساوية من حياته امتدت حوالى عشر سنوات لأنه توفي حوالى سنة 180 هـ أوائل امارة الحكم أبي هشام الذي تولى الحكم في هذها التاريخ(1) وقد وقع ابن الخطيب في تناقض واضطراب اذ نص على أنه والى بين مديح أربعة امراء حيث لحق دولة عبد الرحمن الثاني وبعد ذلك مباشرة يقول بأنه توفي قريبا من الثمانين والمائة ، ومن المعلوم تاريخيا أن عبد الرحمن تولى الامارة سنة 206 ، عقب موت والده الحكم(2) .

للبحث بقيـة **عبد السلام الهراس**

---

(1) دولة الاسلام في الاندلس 1/227 .

(2) المرجع السابق 1/251 ، الاحاطة ص 352 ، وما نظن ان ابن الخطيب يقع في هذا الاضطراب ولذلك نرى أنه يعود الى اخطاء النساخ !

وقادون من المكسيك

للكاتب الامريكي وليز باريت

ترجمة : عبد المجيد بن جلون

كنا ـ لارى وأنا ـ موظفين شابين في احدى شركات الغاز ، وكانت الاوراق التى تتعلق بالعمل تطرح على مكتبنا المزدوج الذى كنا نجلس اليه متقابلين ، وكان المكتب الرئيسى الواقع فى قلب المدينة يرسل الينا سيلا لا يرحم من القواعد والاوامر، لتوضع موضع التنفيذ .

وكان الجميع ينظر الينا بعين الاعتبار ماعدا العمال الماكسيكيين، فنحن لا نمثل فى نظرهم غير الصورة الخارجية لشخص بعيد لا يرى ، هو دافع الاجور ، فمهمتنا على ذلك لا تعدو دفع هذه الاجور .

وكان اولئك الماكسيكيون عمالا افذاذا وكان الممتازون من بينهم هم الوقادون ، وهم رجال ضخام يواصلون عملهم الهرقلى ثمانى ساعات متواصلة فى حرارة لافحة ، يرسلون الفحم بقاذفاتهم الكبيرة داخل ابواب صغيرة فيتتالى الفحم منها كما لو كان سائلا اسود ينطلق من مضخة دون ان يخطئوا تلك الفجوات الصغيرة ابدا، كانوا يعملون وهم عراة الى خصورهم وملء اهابهم الزهو والاعتداد ، قليل

من الناس فقط هم الذين يستطيعون ان يباشروا عملهم وكانوا هم هذا القليل .

كانت الشركة تدفع اجور العمال مرتين فقط في اليوم الخامس واليوم الخامس والعشرين من كل شهر ، وهذا عند المكسيكي في منتهى الجنون ، فاين هو ذلك الرجل الذى يستطيع ان يحافظ على اى قدر من المال مهما عظم لفترة تطول خمسة عشر يوما كاملة ؟ ان كل رجل يستطيع ان يحتفظ فى جيبه بمال مدة ثلاثة ايام ، رجل تعس ، ومتى كان الدم الاسبانى ـ ياسنيور ـ يجرى فى عروق التعساء ؟ وهكذا كان من عادة الوقادين ان يمثلوا امامنا كل ثلاثة او اربعة ايام ليستخلصوا مالهم من مال ، وكان من دأب المكتب الرئيسى التساهل معهم فى ذلك ، الى أن حل يوم تلقينا فيه منه مذكرة تقول :

« لقد حدث كثير من الخلط بسبب عدم انتظام مواعيد دفع الاجور ، ولذلك فلن يتلقى اى عامل بعد الآن اجره الا فى الميعادين المحددين ، ماعدا فى حالة الطوارىء الحقيقية »

لم نكد نعلق الخبر على الآفتة حتى دخل الوقاد غارسيا ليطلب ماله من اجر ، فاشرت له الى الاعلان فقرأه ببطء ثم سأل ، ماذا تعنى عبارة « حالة الطوارىء الحقيقية » ؟

فشرحت له فى صبر واناة كيف ان الشركة ترأف بحالهم وتحنو عليهم ، ولكن مما يضايقها جدا ان تنقدهم اجورهم كل بضعة ايام ، اما اذا اصيب احد بمرض ، او كان فى حاجة الى مال تدعو اليه نازلة ملحة من هذا القبيل ، فان الشركة على استعداد لتنظر فى امره .

ادار غارسيا قبعته فى بطء بين يديه الكبيرتين : اذن لن احصل على اجرى ؟

– يدم الدفع التالى يا خوان ، يوم عشرين .

وعندما خرج فى صمت شعرت ببعض الخجل من نفسى ، ونظرت عبر المكتب الى لارى ، فتلافى نظرتى.

وفى خلال الساعة التالية دخل وقادان آخران ونظرا الى الاعلان واستفسرا عن معناه ، ثم غادرا المكان فى تأثر ، ولم يعد بعد ذلك احد ، اما ما لم نعرفه فهو ان خوان غارسيا وبيتى ماندوزيا وفرانسيسكو غانزليز قد نشروا الخبر ، وان المكسيكيين يتبادلون شرحه : « اذا اريد الحصول على المال الآن ، لابد ان تمرض الزوجة ويكون الصبى فى حاجة الى علاج » .

وفى اليوم كانت زوجة خوان غارسيا تموت ، وأم بيتى مندوزا فى حالة تنم عن انها لن تعيش بقية يومها ، وانتشرت الاوبئة بين الاطفال ، ولم يكن الا اب واحد مريضا لاجل ادخال بعض التنويع على الحالات .. ومهما يكن من امر فان احدا لم يطلب من لارى ولا منى فحص هذه الحالات ، فارسلنا طلباتهم الى المكتب الرئيسى مع شرح لحالة الطوارىء الحقيقية ، فوافقت عليها الشركة وصرف لهم المال .

واستمر ذلك اسبوعا ، ثم وصل امر جديد اكثر دقة وتفصيلا ، وهو ينص على انه لن يصرف من الآن فصاعدا اى اجر الا فى اليوم الخامس واليوم العشرين من الشهر ولن يحدث اى استثناء فى ذلك الا بالنسبة للعمال الذين يرغبون فى مغادرة خدمة الشركة .

وعلقنا الاعلان وشرحنا مضمنه : كلا يا خوان غارسيا ، لا نستطيع أن ندفع لك اى مقدم من اجرك ، ونحن نأسف لحالة زوجتك وابناء عمك وعماتك ، ولكن هناك اوامر جديدة .

خرج خوان غارسيا ليتدبر الموقف

جهارا مع مندوزا وغونزليز والايا ، ثم عاد الينا فى الصباح وهو يقول سأغادر هذه الشركة لالتحق بعمل ءاخر ، فاعطنى اجرى الآن .

فشرحنا له كيف ان الشركة تنظر الى العمال كأنهم ابناؤها ، ولكننا فى الاخير دفعنا له اجره ، لان خوان غارسيا غادر عمله ، وكذلك فعل غونزليز مندوزا وابروغون والايا واورتز ، وهم احسن الوقادين الذين لايمكن تعويضهم .

تبادلت مع لارى النظرات فقد كنا نعرف ماذا سيحدث بعد ثلاثة ايام ، وكان عملنا يقضى بان نذهب فى وقت مبكر من كل صباح الى مكان الصف الذى يقف فيه العمال الجدد ، ليقوموا باعمال يدوية بسيطة خلال النهار ولم يسبق لنا ان تقدم الينا وقادون مهرة لاجل ان نستخدمهم فى هذه الاعمال التافهة ، ولذلك كان علينا بالطبع أن نقبلهم جميعا .

كان يتقدم الينا كل يوم صف من الوقادين المستقيلين ، وصف من الوقادين الذين يطلبون العمل ، واصبحت سجلاتنا جد معقدة ، واصيب رجال المكتب الرئيسى بالارتباك ، وهالهم ان يستقيل خوان غارسيا فى يوم ، ويستخدم فى يوم آخر ، وان يتكرر ذلك عدة مرات ، ولذلك فقد اخذ جرس تليفوننا يوالى الرنين منذ الساعات المبكرة .

فشرحنا لهم فى صبر واناة ، انه لا يوجد ما يمكن ان نفعله اذا طلب عامل ان يستقيل فاذا تقدم الينا بعد ذلك وقادون نحن فى مسيس الحاجة اليهم ، لم يكن لنا مناص من ان نقبلهم .

وفى غمرة من هذه الفوضى اصدر المكتب الرئيسى امرا ، ولما قرأته صفرت ، ونظرت الى لارى وانا اقول « سيعود الهدوء الى نصابه فى هذا المكان » .

يقول الامر : « لا يجوز من الآن فصاعدا قبول اى موظف يستقيل ، الا بعد مرور ثلاثين يوما » .

وجاء خوان غارسيا ليقدم احدى استقالاته ، فاطلعناه على الاوامر وقلنا له انه اذا تقدم غدا لطلب العمل من جديد اصبح طلبه مجرد عبث ، وثلاثون يوما مدة طويلة ياخوان»!

اصبح الوضع الآن خطيرا فوقف يتدبره ، وكذلك فعل غونزليز ومندوزا والايا واورتيز ثم بعد ذلك عادوا وقدموا استقالتهم جميعا .

وبذلنا جهدنا لاقناعهم بالعدول عن مثل هذا التصرف ، ولكنهم ودعونا مصرين على ان يقوموا به ، مضيفين الى ذلك انهم سعداء لتعرفهم بنا وهم يصافحوننا فى تأثر ، وعندما خرجوا تبادلنا ـ لارى وانا ـ النظرات ، فلا شأن لنا بهذا الذى يجرى .

وفى صباح اليوم التالى كانوا جميعا فى الصف ، وتقدم منى خوان غارسيا وقال لى فى جد بالغ انه وقاد يبحث عن عمل .

فقلت : لا تمزح يا خوان ، عد بعد ثلاثين يوما ، الم انذرك ؟

فركز عينيه فى عينى دون ان يطرف وقال : هناك خطأ ياسنيور، فانا مانيوويل هرنانديز كنت اعمل وقادا فى بويبلو وفى عدة امكنة اخرى .

وتذكرت كل استقالاته وعوداته الى العمل ، وزوجته المريضة ، وحاجة اولاده الى العلاج ، ولكن مالى انا ولاسمه ، انه وقاد وكفى .

قبلته وقبلت غونزليز الذى اقسم بان اسمه كاريرا ، وكذلك ايالا الذى قال دون خجل ان اسمه سميث .

وبعد ثلاثة ايام بدأت الاستقالات

من جديد ، ولم يكد يمر اسبـــوع حتى اصبحت قوائم العمال تشتمل على الاسماء المعـروفـة فى جنـوب امريكا كلها ، ولذلك فقد كان علينا ـ لارى وانا ـ ان نقابل الرئيـــس ونكشف له الحقيقة ، فكتم الرئيس غيظه وهو يقول : هذا هراء يجب ان يوضع له حد .

وفى اليوم التالى حينـــما اقبل الوقادون قال لهم لارى : « قيدوا انفسكم منذ الآن باحب الاسمـــاء اليكم يا سادة » فنظروا الينا ثـم تطلعوا الى اللافتة الخالية ..

وكذلك كان .

ترجمة : عبد المجيد بن جلون

عندما تندثر أشياء وتنبعث اخرى

قصة بقلم : محمد الصباغ

لماذا تبكى وتستمر فى البكاء ؟

الدموع تنهمر على خديها بغزارة ، فتسقى حقل فراشها الصغير .

لا أحد يدرى لماذا تبكى : « عنادل » . لا احد يدرى سبب غضبتها وثـورتهـا .

بحرارة تبكى ، وتشير بسبابتها البرعمية الى شىء فى حجرتها .

« أم عنادل » ، تجيل النظر فى الحجرة ، عساها تهتدى الى هذا الشىء المجهول الذى تشير اليه صغيرتها .

تجيل النظر مرات متعددة ، دون أن تهتدى الى هذا المجهول المشار اليه.

لماذا تبكى ، وتستمر فى البكاء ؟

لعلها فى حاجة الى تنظيف سروالها المبلل .

لعل ألما انتاب معدتها . هذا الألم قد يكـون مصدره حبـات عنـب أكلتها ، فلم تتحملها معدتها الفتية .

الجدة كم نصحت الأم من عدم اعطاء وليدتها مثل هذه الفواكه المضرة لمثل هذا العمر .

الأم لا تابه لنصائح أمها . هى تقتفى فى تربية صغيرتها الاولى، المعلومات التى تلقتها من كتاب فرنسى . معلوماته تطبقها بحذافيرها على « عنادل » . يجب أن تتربى ابنتها وتنشأ على الطريقة العصرية ، لا على الطريقة العتيقة التى ربتها عليها أمها ، ومثيلاتها من جيل أمها ، هذه الطريقة التى لا تستند الى علم أو معرفـــة .

ذاك جيل مضى . وهذا جيل أقبل .

على غلاف الكتاب الباريسى ، صوره مغرية لطفلة وجهها يطفح بالعافية وجه ممتلىء مشرق .

الأم ترغب في أن تكون : « عنادل » ، فى مثل صورة هذه الطفلة : امتلاء ، وعافية ، وبهجة .

هذه الصورة لا تفارق ذهن الأم ، وخصوصا اذا أحست بضعف فى ابنتها ، أو فتور فى شهيتها .

مازالت تبكى .

لماذا تبكى ، وتستمر فى البكاء ؟

ما بال الصغيرة تبكى ؟

وتمد يمناها الى جبين ابنتها تتحسسه ، ومع ذلك فانها غير مطمئنة .

لعل زكاما فاجأها بحرارته . لابد من « التيرموميتر » . الحرارة عادية. الجهاز يسجل 36 درجة .

وتعود الى الكتاب الفرنسى تستفسره . الكتاب أصبح فى البيت وسوسة خناسة فى صدر الأم . كلما انتـاب شيء ولو طفيـف لابنتهـا تعود اليه . أكثر فصوله حفظته عن ظهر قلب . لو امتحنت فى معلومات هذا

الكتاب ، بالتأكيد لنجحت ، ورسبت فقط ، فى تلك الوسوسة المسيطرة عليهـــا .

لابد من أن تمسك « عنادل » عن تناول الحليب لمدة ثلاثة أيام ، على أن تتناول فى كل يوم منها ، ثلاث ، أو أربع ، مصاصات من عصير الجزر .

وهنت قوتها من كثرة البكاء . نامت الصغيرة . لاحاجة الى استشارة الطبيب . كفاها من استشارات الطبيب . الحرارة عادية .

فى حجرة : « عنادل » كثير من اللعب والدمى المختلفة . كل دمية لها اسم من أسماء أفراد أسرتها العديدين .

الجد ، والجدة ، والخالة ، والخال ، والعم ، والعمة ، وسواهم من أفراد الأسرة كلهم أصبحوا دمى . فى حجرتها تحركهم ، وتحدثهم وتناغيهم.

مجموعة من الدمى أصبحت أسرتها . الأسرة كلها أصبحت فى عمر الطفولة المبكرة :

الجد السبعينى أصبح وله من العمر سنتان .فى فمه مصاصة من حليب يمتصها بشهية مفرطة . الجد ينام فى حضن : « عنادل » ؟

سنان فقط فى فمه . ومكان الثالثة احمر منتفخ .

طارت هموم وأمراض السبعين . لا اثر لمرض السكر . لا اثر لعلـــة المفاصل ، والبواسير ، والمعدة ، لن يجرى فى حقه التقاعد الوظيفى . لن يتتبع النظام الطبى فى حياته اليومية . علب الدواء مهملة . لا تمتد اليها يد .

الجد فى فمه مصاصة من حليب . بشهية يمتصها . الحليـب الـذى يمتصه من النوع الممتاز . من نوع « أميل » . آخر ما ظهر فى عالم حليب الاطفال .

الجد لا يترك فى مصاصته الزجاجية ولا قطرة . المصاصة فارغة بين

انامل الجد . اعتاد على امتصاص هذا النوع . لو قدم اليه نوع آخر لرفضه . بتناول الجد لهذا النوع من الحليب ، ستصبح صحته كصحة الطفلة التى توجد صورتها على واجهة الكتاب الفرنسى .

لم تبق من الستين ، الا ، سنتان .

للجدة كذلك سنتان فقط .

الجدة ترى وجهها فى المرآة . لا أثر فى المرآة لتجاعيد ، ولا لغضون ، ولا لشحـــوب .

لا أثر للأسنان الاصطناعية فى فمها .

الجدة أصبحت لا تستحيى . لا تخجل . تبول اين ما حلى لها ان تبول .

فوق المخدة تبول . فوق فراش والديها تبول . فوق السجادة تبول . على مرأى من الحاضرين تبول باطمئنان .

الجدة لا تستحيى . تتشيطن . تعبث بالاثاث . تكسر الكؤوس والصحون . تمزق الاوراق والكتب ، والرسوم .

ما أكثر شيطنة الجدة ـ هذه العابثة التى تستهزىء بكل شىء حولها، ولا تقيم له وزنا ، وان كان هذا الشىء ثمينا ، ونفيسا ، ونادرا .

مجموعة من الدمى أصبحت أسرتها . الأسرة كلها غدت فى عمـــر الطفولة المبكرة .

وتعود : « عنادل » الى البكاء .

ما بال : « عنادل » تبكى ؟

بحرارة تبكى .

لعلها فى حاجة الى تنظيف سروالها المبلل .

لعل ألما انتابهـا .

لعل زكاما فاجأها .

وتعود : « أم عنادل » الى كتابها الفرنسى تستفسره .

ويعود : « التيرموميتر » من جديد . ومع هذا الجهاز تعود الوسوسة ، والاوهام ، والمخاوف ، والأحزان ، والشكوك .

وتعود الى دفتر « عنادل » الذى يسجل مراحل حياتها :

جميع التلقيحات مثبتة .

الوزن فى ارتفاع .

مراحل النمو ، والانتباه ، على أحسن ما يرام .

الاسنان بدأت تكثر فى فم : « عنادل » ومع الاسنان تنبت الانياب والاضراس .

لقد امتلأ فمها ، لم يعد فيه ولا ثغرة واحدة . كل ثغراته مملوءة .

الاسنان تكبر ، ومع الاسنان تكبر الاشياء ـ تلك التى تـراهـا ، وتحسها ، وتلمسها .

لقد كبر الجد الطفل ، وكبرت معه الجدة الطفلة ، وكبرت معهما جميع دمى أفراد أسرتهـا .

الجد شب عن الطوق . هو أكبر من أن يتناول مصاصة من حليب .

هو أكبر من أن تطعمه أمه الحساء الخفيف . هو أكبر من أن تنظف له أمه سرواله من البول .

أصبح يأكل عنقودا من عنب ، ولا يشتكي من ألم ، ولا يبكي من ألم .

والجدة كلما أحست ببولة تحبسها ، وتمضي الى المكان المخصص لها ، دون أن يشعر بها أحد ، دون أن تلفت اليها نظرا .

الاشياء تكبر في ذهن : « عنادل » تكبر شيئا فشيئا .

عالم يندثر ، وآخر ينبعث ، بمفاجآته ، وصدقه ، وحقائقه ، وواقعيته

في « عاشوراء » ، اشترت « ام عنادل »لابنتها تيلفونا من دكان اللعب لتتسلى به كالعادة مع ابنتها . لتنادى به أحد أفراد أسرتها في الخارج كالعادة .

ما أن وضعت « الأم » سبابة يمناها في ثغور الجهاز ، لتسجل الرقم ، حتى فرت الصغيرة من وجهها رافضة هذا الجهاز ، ومضت الى التيلفون الحقيقي في حجرة أخرى .

امام هذا التيلفون عالم من الدمى واللعب . عالم طفولة ميت .

محمد الصباغ

والجروح قصاص

قصة بقلم : احمد عبد السلام البقالى

الصور الدامية ما تزال حية فى مخيلة مولاى الوافى ..

اصوات الرصاص ينطلـق من فوهة الرشاش الثقيل ليخترق اجسام الرجال والشبان الواقفين صفا واحدا ، عزلا لا حول لهم ولا قوة .. كانوا ما يزالون فى ملابس نومهم الخفيفة فى برودة الفجر .. بعضهم حفاة بيض الارجل يقفون على ارض شائكة ندية ..

ورغم احساسه بالغثيان فقد كان يحرك رأسه غيـــر مصدق ، ما اشجع اولئك الرجال .. رفضوا ان يهتفوا بحياة « فرانكو » فدفعوا حياتهم ثمن عنادهم .. بل دفعت الحماقة ببعضهم الى الهتاف بحياة الجمهورية ، فاسكتهم الرصاص الى الابد ..

سقطت جثتهم ما تزال دافئة من فراش الصباح على ارض مبتلة موحلة . وبدأ الجنود يلقون بهم فى سيارة النقـل كالاكباش الذبيحة وعيونهم ماتزال مفتوحة .

نزل مولاى الوافى من دار المراقب الاسبانى بقلب ثقيل .. كان يلبس جلبابه الصوفى الابيض ويتعمم بشال يتدلى طرفه على ظهره ، وقد لمع جلد رأسه الحليق . رغم حمرة وجهه وزرقة عينيه التى كانت تعطيه مظهر القوة والبأس ، فقد كان يبدو عليه الاعياء .

قصد طريق البحر حتى لا يستوقفه احد من اصدقائه فى طريقهم الى سوق السمك ، فلم يكن يشعر بالرغبة فى الحديث لاحد .

عزم الا يقول لزوجته شيئا مما حدث هذا الصباح .

ورفع نقارة باب الدار النحاسية وطرق ثلاث مرات على عادته ، فأسرعت الخادمة الجبلية الى فتحه ، ودخل قاصدا غرفته حيث كانت زوجته الشابة الحسناء تنتظره بالفطور .

تهاوى على الحشية فى اعياء وارتخاء اثارا اهتمام زوجته « ربيعة » . قالت وهى تصب الشاى :

ـ تأخرت اليوم .

ـ اخرنى المراقب .

ـ المراقب ؟ فى هذا الوقت المبكر !

ـ هناك اشياء مهمة كان يجب تصفيتها .

ـ ما هذه الاشياء ؟

قالت وهى تناوله كأس الشاى حاميا يغلى ، وتضع امامه شطيرة خبز محمرة بالزبدة .

وتنهد مولاى الوافى بعد رشفة من الكأس فخرج بخار من بين شفتيه .

أحس أن ربيعة ماتزال تنتظر جوابه ، وانه ذاهل يحملق فى الفراغ . فاعتدل فى جلسته ، وتربع ، ونظر اليها والكأس فى يده .

كانت فى حوالى العشرين ، بيضاء فى مزيج من الحليب والورد ، وشعرها الناعم اسود طويل يتدلى الى مـا تحـت حزامهـا .

ومولاى الوافى فى العقد الرابع من العمر أو يزيد قليلا مستدير الوجه بلحية تميل الى الحمرة .

أدرك وهو ينظر اليها أنه سعيد بها ، وأنها كنز عزيز عليه ، وما كان يدرى كيف تكون حياته بدونها ..

لم يكن يقاسمها فى حبه الا ابنهما « المختار » فى الثالثة من العمر .. كان وحيدهما .. وزاد فى اعزازه انه لن يكون فى حياته غيره .. أكد له عدد من الاطباء الاختصاصيين انه عاقر بعد مرض ألم به .. فكان يعبد طفله المختار ويدلله لدرجة الافساد .

ورشف من الكأس مرة أخرى ، وتنهد على عادة أهل

الجبل .. وسمع زوجته تقول شيئا لم يفهمه ، فخرج من سهومه ، وهمهم :

ـ آه ؟ ماذا كنت تقولين ؟

ـ لابد أن شيئا كبيرا يشغل بالك .. ليس من عادتك السهوم والصمت .

ـ كما قلت ، أشياء كثيرة تحدث هذه الايام .. النصارى بدأوا يأكلون بعضهم بعضا !

وشهقت ربيعة ووضعت يدها على صدرها :

ـ مـــاذا ؟

ـ لا داعى للانزعاج .. الامر بينهم هم ، ولا دخل لنا نحن فيه ..

وفكر قليلا ثم قال :

ـ بل ربما كان لنا فيه خير وبركة !

ـ ماذا تعـنى ؟

ـ لقد قال لى المراقب ان هناك مالا كثيرا يدور هذه الايام فى ايدى المسؤولين .. وسوف يكون لكل من يخدم اسبانيا نصيب فيه . كل حسب اخلاصه للجنرال ..

ـ وكيف ستحصل أنت على نصيبك ؟

ـ قال لى المراقب ان « المخزن » وافق له على اخذ المغاربة للمشاركة فى حـرب « الروخـو » باسبانيـا . وكلفـــنى

بالدعوة للحركة فى الجبل ، وجمع الراغبين فى الذهاب للحرب . وسوف لا أجد صعوبة بين ناس الجبل ، فأنا أعرفهم جيدا ، وسيكون من السهل على اقناعهم .

ـ وبعـــد ؟

ـ سأتقاضى على كل رأس مبلغا محترما !

ـ معنى هذا انك ستبيع المساكين كالكباش ليصبحوا حطب الحرب !

ـ أبدا .. انا فقط سأوصل الكلمة اليهم ، والامر لهم . سوف لن أرغم أحدا على تسجيل اسمه .. قلت ذلك للمراقب فقال لى ان الجندى المتطوع خير ألف مرة من المرغم ! النصارى يعرفون شغلهم ، لذلك غلبونا ..

ـ لا يعجبنى هذا العمل ..

ـ انتظرى حتى ترين أرباحه .. سوف يتحقق لك كلما أردت .. أولا : الدار ! ألم توجعى رأسى بطلباتك لبناء دار أوسع وأجمل حتى يمكنك أن تستقبلى زوجة المراقب ونساء الرسميين ؟!

ونسيت هى ما كانت تفكر فيه ، وأضاءت محياها الجميل ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان كعقد من اللؤلؤ .. قالت متحمسة :

ـ هل حقيقة سنحصل على ما يكفى لبناء دار كما نحب ونرضى ؟!

ـ واكثر من ذلك .. اكثر كثيرا !

ثم فكر قليلا وحرك رأسه ، فقالت :

ـ ماذا يضايقك ؟

ـ شيء بسيط سخيف .. « العباسة !»

ـ العباسة ؟ العجوز العمياء الساكنة فى الخربة المجاورة لنا ؟

ـ نعـــم !

ـ ما دخلها فى كل هذا ؟

ـ ذكرنى بها حديثنا عن الدار الكبيرة .. كنت أريد أن اشترى منها دارها لاضيفها الى دارنا هذه ، ونهدم الاثنين لنبنى فعلا الدار التى نريد ..

ـ وماذا حـدث ؟

ـ العمياء عنيدة كالبغلة ! لم تنفعنى معها حيلة .. اعطيتها ثمن تلك الخربة مرتين فلم تقبل .. ربما تخاف أن ألعب عليها بشكل أو بآخر ..

ـ والآن ، ماذا سنفعل ؟

ـ هناك حلان .. نترك الدار ونبنى خارج المدينة ، او نقنعها بالقوة ..

وشهقت ربيعة ووضعت يدها على صدرها :

ـ أنا أخرج من هنا ؟! لن أجد مكانا أحسن من هذا

ابدا .. لكننى لا أحب فكرة اقناعها بالقوة ..

ـ لا تقلقى .. سأعثر على حل ما ..

لم تكن على باب العباسة نقارة أو خرصة .. كان زوارها يفتحون الباب ويصيحون باسمها فتصيح هى الاخرى من غرفتها طالبة منهم الدخول .. صديقاتها من عجائز المدينة كانوا يدخلون دون استئذان .. يبدأون بالكلام والتحيات أو النكات من الباب ، فتجيب هى من غرفتها سائلة عن صحة الزائرة باسمها ، اذ تتعرف عليها من صوتها ..

دفع مولاى الوافى الباب الكبيرة المشققة ، ودخل ينظر يمينا وشمالا لعله يرى العجوز .. كان يعرف الدار بجميع اركانها ، ويعتبرها ملكا له .. فقط ، لو استطاع ان يقنع العجوز ! ورغم ان هذه كانت تعارض ، فقد كانت كلماتها رقيقة واسلوبها مؤدبا لبقا ، فلم تكن تريد ان تجرح رجلا طويل الباع مثل مولاى الوافى .. وكان هو يعتبر ذلك مساومة منها لرفع الثمن . ولما لم يكن جادا فى الشراء من قبل فقد كان يطلق لها حبل الوقت الى ان يتوفر له المبلغ المطلوب لشراء الخربة وبناء داره الفخمة على انقاضها ..

اما الآن ، وقد تغيرت الاحوال ، لم يعد مدخوله مجرد ما يحصل عليه من غلال ارضه بالجبل كل سنة ، بل اصبح اضعاف ذلك بفضل الحرب .. المراقب كان يعتمد عليه كثيرا فى حكم القبائل الجبلية والسواحل .. كان يستشيره فى كل صغيرة وكبيرة ويأخذ برأيه فى العادات والتقاليد الدينية ،

والمناسبات الشعبية .. وقد علا شأنه الآن باندلاع الحرب الاهلية ..

هذا الصباح وقف له المراقب ، ووضع يده على كتفه قائـلا :

ـ مشاكل الاسبان ينبغى ان يحلوها بينهم .. وقـد أحضرتك هذا الفجر فى عملية اعدام جماعة « الروخوس » لاننى اعتبرك واحدا منا .. اردتك ان ترى بعينيك ما نحن مستعدون لعمله حتى فى اخوتنا لتدرك جدية هذه الثورة .. ستكون رسول الجنرال « فرانكو » فى الجبل .. ستأتينا بالرجال .. اما المال ، فاطلب ما شئت فالخنزاليسموا له هذه الكثير ..

ونظر المراقب فى عينيه بصدق ، وقال :

ـ صديقى العزيز .. لن تندم أبدا !

هذا ما جعله يشعر ان كل شىء يتغير من حوله .. لقد اوشك ان يحدث فى حياته انقلاب كامل .. يخرج من زمرة الفلاحين الضعفاء الى زمرة الاغنـياء مـن ذوى الجـاه والسلطان .. لذلك لابد له من بناء دار تناسب مقامه الرفيع .. داره الحالية لا توحى بالاهمية التى يقتضيها مقامه .. على العباسة اذن ان تخرج ..

ونادى باسمها :

ـ العباسة .. العباسة .. أين أنت ؟

وسمع صوت العجوز من غرفتها :

ـ نعم آسيدى .. من ينادى ؟ مولاى الوافى ؟ مرحبا ونهار كبير ! كيف حالك ؟ وكيف حال العيال ؟

ـ الحمد لله ، وأنت كيف صحتك ؟

ـ احمد الله واشكره على العافية .

ووصل حيث كانت تجلس فهمت بالنهوض فأقعدها ، وحاولت امساك يده لتقبيلها فسحبها بسرعة وهو يتكلم :

ـ لا حاجة بك الى النهوض .. اقعدى ، حاشاك .. حاشاك .. ماذا تفعلين ؟ أرى أنك ما تزالين نشيطة ..

عادت الى مجلسها فاسترجعت الركة (قصبة الغزل) الى حزامها الجبلى الاحمر يدور على خصرها كالعجلة . وبدأت تغزل وهى تتكلم :

ـ وكيف حال سيدى المختار ؟ « العزرى » تبارك الله ! كلما وجد الفرصة دخل عندى هنا ودون أن اشعر به يضع يده الصغيرة على وجهى ويضحك ..

ـ انه يقضى عندك هنا من الوقت اكثر مما يقضى مع امـه !

ـ انا دائما اقول الديار القديمة احسن للاطفال .. الاتساع والشمس والهواء والشجرة وسط الدار يتعلقون بغصونها .. ديار اليوم تبعث الضيق فى القلب .. كلهـا رخام وزليج كالقبور ..

وتنهد مولاى الوافى مستغلا الفرصة :

ـ كما علمك الله يا عباسة ! فى نفس هذا الموضوع جئت أتحدث اليك .. موضوع الدار !

ـ ماذا ؟ خبر خير ان شاء الله .. هل تنوى شراء دار جديدة ؟

ـ لا ، اذا تعاونت معى ..

ـ أنا ؟ وكيف ؟

ـ سنعود الى الموضوع السابق .. أريدك أن تبيعنى هذه الـدار .

وصمتت العباسة ، فأضاف :

ـ أريد توسيع دارى .. وهذه الدار هى الامتداد الطبيعى لها .. سأعطيك ثمنا محترما .. أو اختارى أى دار تعجبك فى السوق أشتريها لك .. هل تريدين أكثر من هذا ؟

وظلت العباسة صامتة وقد جمدت يدها على قصبـة « الركة » وانتصب وجهها دون تعبير .

قال مولاى الوافى :

ـ ماذا تقولين الآن ؟

قالت العجوز بصوت صلب :

ـ كنت أعتقد اننا انهينا الحديث فى هذا الموضوع ..

ـ من قبل لم اكن جادا فى موضوع الشراء كما انا الآن ! تغيرت الاحوال الآن .. وأنا فى أشد الحاجة الى دار

أكبر . ماذا تقولين ؟

وبعد صمت محرج كانت خلاله شفتا العباسة ترتعشان من الانفعال المكبوت . قالت :

ـ الدار لم تعد ملكى وحدى ..

وظهرت المفاجأة على وجه مولاى الوافى :

ـ هل لك فيها شريك ؟

قالت باصرار :

ـ نعم .. ولدى محمد .

قال مستخفا :

ـ ولدك ما يزال طفلا تحت حضانتك .. انت وصيته وصاحبة الحل والعقد فى شؤونه ..

ـ ولدى محمد لم يعد طفلا صغيرا .. لقد بلغ السابعة عشرة فى الشهر الماضى ، وأصبح رجلا يعرف ما يريد .. وقد ناقشته فى الموضوع فقال انه سيبنى هذه الدار عندما يتوفر له المال .

وضحك مولاى الوافى :

ـ ومن أين سيأتى بالمال ؟

ـ له مشاريعه الخاصة .. لقد بدأ يربى الدجاج ، وسوف يمكنه قريبا ان يشترك مع بعض اقاربنا من اهـل « الساحل » بعض الاغنام .. انه متحمس لذلك .. وأنا أعتقد

انه سينجح .. سأساعده !

وتنهد مولاى الوافى :

ـ لا اتمنى له الا كل النجاح .. الا انه ليس ضروريا أن يبقى هنا فى هذه الدار بالذات !

قالت العباسة بتصميم :

ـ انها داره ، ودار أبيه وجده من قبله .. وله كل الحق أن يبقى بها ..

قال مولاى الوافى وقد توترت أعصابه :

ـ واضح أنه لا فائدة من الاستمرار فى هذا الحديث .. لقد عزمت على اتخاذ خطة العناد .. ولا امل لى فى تغيير رأيـــك ..

وظلت هى صامتة ، ففقد السيطرة على اعصابه وبدأ يقـــول :

ـ كنت اظنهم يظلمون العميان ، ولكنى الآن أعرف مبلغ صدق المثل القائل : « الأعور اذا وتر ! »

وهنا أحس بوجود أحد خلفه فالتفت فاذا هو محمد ولد العباسة ينظر اليه فى غضب وقد لبس بذلة « الفتيان » ـ فرقة حزب الاصلاح العسكرية ـ وقد تصلبت قبضته على طربوشه الفيصلى .. قال غاضبا :

ـ كيف تجرؤ على أن تهاجم عجوزا عمياء فى عقر دارها وتخاطبها بتلك اللهجة ؟!

قال مولاى الوافى ساخرا :

ـ آه ! أنت هنا ! رجل المستقبل ! ان أمك عنيدة لا تفهم !

قال محمد :

ـ عنيدة لانها رفضت الخروج من دارها وقاومـــت أنانيتك ؟!

ـ اسمع يا ولدى .. لا تدع أولئك الصعاليك الذين يسمون أنفسهم الوطنيين يلعبون بعقلك .. الأحسن أن تخلع كسوة « باجلود » التى تلبس وتتجه لعمل شيء مجدى بدل الاستعراض فى الشوارع والهتاف بالكلام الفارغ ! اسبانيا دولة قوية ، والاطفال أمثالك لا يحركون لها شعرة !

ورد محمد بعصبية :

ـ اسبانيا لم تدخل المغرب الا بالتعاون مع الجبناء والجواسيس والخونة !

وهناك صاحت العباسة :

ـ محمد .. أسكت يا بنى ! أسكت !

ثم توجهت نحو مولاى الوافى :

ـ أرجو الا تهتم لما يقول .. فهو ما يزال طفلا صغيرا ..

فأجاب مولاى الوافى :

ـ لقد قلتها لك منذ لحظة ، فلم ـ

وقاطع محمد فاقدا السيطرة على أعصابه :

ـ لم يعد امرك سرا فى هذه المدينة .. وسيأتى يوم تعلق فيه مع امثالك عندما نرمى باسبانيا فى البحر !

وهنا وقعت صفعة من يد مولاى الوافى على وجهه .. وتدخلت العباسة فأمسكت بابنها وهو يحاول الفكاك منها ليهاجمه وقر اغرورقت عيناه من القهر ..

وخرج مولاى الوافى وقد اصفر وجهه وشحب من شدة الغضب والانفعال ..

هذه أول مرة سمع فيها هذه الكلمات .. كان يظن أن ما يفعله لا غبار عليه رغم انه كان يحس فى اعماقه بغموض ، ان هناك شيئا غير اخلاقى فى تصرفاته .. اما الآن فقد سمع من غلام برىء مايدور عنه فى الاوساط الوطنية والشعبية من كلام ، وواجه حقيقة نفسه فى تهمة محددة فى كلمات واضحة

ومضى أسبوع ..

وخرج مولاى الوافى الى البادية يزور القرى والدشور داعيا الى الحركة مشيدا بزعامة « فرانكو » وحبه للمسلمين .. كان يسميه « عمى عبد الله فرانكو » ليخلط الامر على البسطاء من أهل القرى والفلاحين .

كان نبادى « الكشاف » ، فى القسم الاعلى لبناية من طابقين . كانت الاضواء تشع باهرة من نوافذه

الواسعة المطلة على الساحة الكبيرة الممتدة الى باب البحر ..

وكان محاضر من خارج المدينة يلقى ما كان يسمى « بحديث الاربعاء » والهدوء شامل داخل النادى ..

وعند نهاية الحديث وقف الجميع لانشاد النشيد الكشفى « أيها الكشاف !» .. ومتلأ الجو بأصوات رائعة تردد الحان النشيد الحماسى الجميل ..

وخرج محمد بن العباسة بعد نهاية النشيد مع جماعة من أصدقائه ينشدون .. « دمت يا بلادى ما دام الزمن » ويخترقون جماعات « الكشاف » المجتمعين حول قائد ، أو يتدربون على الطبول أو المزامير ، يمازحون وينكتون .

وعند مفترق الطرق تفرقت الجماعة كل واحد فى اتجاه داره ..

كانت الطريق الى دار العباسة على السور المشرف على البحر .. وفى الغالب كان الاطفال يعيثون فى المنطقة فسادا فيرجمون المصابيح بالحصا ويتركون الشارع الطويل فى ظلام دامس ..

ومشى محمد وحده يصفر نشيده الاخير فى نشوة ..

وعندما توسط الشارع المفرج المظلم أحس انه لم يعد وحده ، وأن عيونا تراقبه ، فاقشعر بدنه ، وبدأ ينظر يمينا ويسارا حتى أوشك على الجرى ..

فى هذه اللحظة خرج من ركن مظلم رجل تقدم نحوه ..

وعندما وقع النور على وجهه تعرف عليه .. « الجيلالى » أحد أعوان المراقب ..

كان يبتسم له محاولا أن يهدىء من روعه ..

وحين اقترب منه مد يده اليه مسلما :

ـ محمد ؟ ولد العباسة .. ماذا تفعل فى هذه الساعة ؟

ولم يتكلم محمد ، فأضاف هذا :

ـ كيف حال أمك ؟

ـ لا بأس .. الحمد لله ..

ونظر الرجل حواليه ثم نظر الى محمد فى عينيه وقال :

ـ اسمع .. ستأتى معى لمدة نصف ساعة .

وفوجىء محمد :

ـ الى أين ؟

ـ ستعرف .. لا تخف ..

وخطر لمحمد ان يطلق ساقيه للريح ولكن الجيلالى قرأ افكاره فأمسك بذراعه بيد قوية .. وخرج من ركن آخر رجل فى ملابس جبلية مثل الجيلالى فأمسك بالذراع الاخرى وذهبا به فنزلا من باب البحر واختفيا فى الظلام ..

ظلت العباسة تنتظر ابنها طويلا بعد أذان العشفاء .. وضعت الطعام مرارا على المائدة عند سماعها لوقع خطوات

عابر سبيل فى الشارع الخالى ، وجلست مرهفة سمعها فاتحة عينيها لعلها تسمع الباب تفتح . ولكنها سرعان ما كانت تعيد الطعام الى النار خائبة الامل .

كان محمد دائما يخبرها انه سيتأخر اذا كان ذاهبا الى السينما أو الى عرس لو سهرة .

ومع الحادية عشرة زاد قلقها فقامت والتحفت وخرجت تطرق أبواب عائلات أصدقائه سائلة عنه بدون جدوى .

وحين عادت الى بيتها كان الوقت قريبا من منتصف الليل ، كانت ترتعش من البرد والخوف الا تجده هناك ..

ودخلت البيت ونادت باسمه من الباب ، فلم تسمع جوابا .. وغرق قلبها فى حزن عميق وترقرقت الدموع على خديها وهى تنتحب فى صمت .

وباتت ليلتها ساهرة أرقة تغفو ثم تفيق منزعجة تطاردها الاحلام والهواجس حتى هدها السهر والتعب فنامت جالسة فى مكانها ..

ومع الفجر خرجت تطرق ابواب جميع من تعرفهم من رجال السلطة ابتداء من مقدم الحومة الذى كانت أمه صديقة حميمة لها ..

عاد مولاى الوافى من حملته السياسية فى القبائل والاسواق .. كان يركب حصانا مبرذعا ويجر خلفه بغلة محملة بكل ما لذ وطاب من فواكه البادية وطيباتها .

وترجل عند باب داره وطرق الباب ثلاث مرات على عادته ، فسمع صوت طفله المختار من ورائه يتعلق بالمزلاج ليفتحه ويصيح : بابا .. بابا ..

وفتحت الخادمة الباب فانحنت على يده وقبلتها وانحنى هو والتقط ابنه يحتضنه ويداعبه والآخر يمسك بلحيته ويضحك .

وخرجت زوجته من بيت النوم فى قميصها الرهيف وقد انشق عن صدر أبيض ناهد . كان وجهها الوردى ينطق شبابا وجمالا وشعرها الفاحم يتدلى على كتفيها ..

وقبلت كتفه فوضع يده على رأسها وناولها الطفل ليبحث فى جيبه عن قرطاس الحلوى الجبلية الزاهية الالوان . وامسك الصغير بالقرطاس وخرج يجرى الى الشارع وينادى باسم « نانى » كما كان يسمى العباسة .

واعدت له « ربيعة » صرة الحمام فذهب . وحين عاد كانت قد هيأت الفطور فجلس يأكل ويحدثها عن رحلته ودخل المختار الصغير فجلس على ركبة أمه ذابل العينين من النوم ..

وما وصلت التاسعة حتى وثب مولاى الوافى الى قدميه ولبس جلبابه وخرج قاصدا دار المراقب وتبعته زوجته الى الباب لتقول له عن اختفاء ابن العباسة وانها جاءت تترجاها التوسط لها مع « المراقب » لاطلاق سراحه من المعسكر ، فهز أكتافه ولم يقل شيئا ..

كان يريد تقديم تقريره للمراقب عن نجاحه الباهر فى الدعوة للحركة والاقبال الذى وقع على مراكز التجنيد المتنقلة..

حملته هذه ستهيؤه لترقية ومسؤولية اكبر ، وبالتالى اجرة اضخم وسلطة اوسع ..

ولم يطرق باب المراقب . كان عنده اذن بالدخول متى حضر من المهمة .

وبدل ان يقف المراقب له ويخرج من خلف مكتبه ليصافحه بحرارة ويطبطب على ظهره كما توقع ، فقد كان هذا واقفا بالفعل الى جانب النافذة يقرأ برقية فى يده ، وعلى وجهه علامة استياء ..

وبدون تحية ناوله البرقية ثم انتزعها منه قائلا :

ـ نسيت أنك لا تقرأ .. أتعرف ما جاء فى هذه البرقية؟

وارتسمت على وجه مولاى الوافى نظرة غباء وحيرة . فقال المراقب :

ـ الولد الذى أعطيت الأمر بالقبض عليه وتجنيده رغما عنه ..

ـ أى ولـــد ؟

قال المراقب وأثر الغضب فى كلامه :

ـ لا تلعب معى ! ليس هناك شيء يدور فى هذه المدينة وما حولها دون علمى .. الولد بن العباسة ، العجوز العمياء .. وحيدها .. أمرت بالقبض عليه وارساله للجبهة ..

ـ وماذا فى ذلك ؟

فصاح المراقب :

ـ ألم أقل الا تأخذ أحدا من اهل المدينة بالاكراه .. فى ذلك دعاية سيئة للحركة .. هذا الولد حاول الهروب من معسكر التدريب « بسبتة » فأطلق عليه الحرس الرصاص وقتلـــوه ..

وفتح مولاى الوافى فمه للمفاجأة وبدأ يمسح جبينـــه بيده .. ثم بدأ يتمتم :

ـ لم يكن قصدى ان يأخذوه لسبتة . كنت فقط أريد استبقاءه رهينة حتى توافق أمه على بيع دارها لى .. وهذه نتيجة عنادها ..

قال المراقب غاضبا :

ـ لقد قلت لك الا تخلـط اعمالك الخـاصة بأعمـال الحكومة .. اسبانيا لا تريد اثارة غضب الناس فى هـــذه الظروف الحرجة .. وسياسة الزعيم ـ

وقاطعه مولاى الوافى منرفزا :

ـ كنت أظن انك رجل حديدى القلب .. رأيتك بعينى تنفذ حكم الاعدام فى ابناء جلدتك .. ولا ارى سببا لاثارة كل هذا الجدال حول مقتل غلام طائش .. انها الحرب .. ولابد أن يذوق منها الجميع .. ثم اننى غاضب لانك لم تسألنى عن الأهم ! الرحلة والحملة للحركة .. أم هل انت من الذين

يرون الاخطاء فقط !؟

وقاطعهما حاجب المراقب بطرقة قوية على الباب ، وفتحها .. نظر اليه المراقب مستفسرا ، فضرب الارض برجله ورفع التحية العسكرية :

ـ خادم مولاى الوافى تريده فى الحال .

واشار مولاى الوافى اليه فى امتعاض ان ينتظر حتى يتم حديثه مع المراقب .. ولكن الحاجب اصر ، وهو مايزال رافعا التحية .

ـ اخشى انها جاءت بخبر مهم يا سيدى .. يظهر أن طفلك مريض ..

وهنا زالت نظرة الامتعاض عن وجه مولاى الوافى وحلت محلها نظرة ذعر .. فاستأذن المراقب وخرج ..

وهرع الى الخادمة يمطرها بالاسئلة وهى تجيب من خلال دموعها مسرعة الى جانبه فى طريقها الى الدار ..

دخلت أم المقدم دار العباسة دون أن تصيح أو تنكت هذه المرة .. كان على لسانها خبر مهم تريد قوله لها ..

وبحثت عنها فى الساحة فلم تجدها .. ودخلت الغرفة الكبيرة ، ونظرت يمينا ويسارا فلم تجدها .. وهناك بدأت تنادى باسمها ، فسمعت صوتها عميقا داخل الغرفة ، قالت :

ـ اين انت ؟

واجابت العباسة :

ـ هنـا ..

ـ أيـن ؟

ـ تحت السرير ..

ـ ماذا تفعلين تحت السرير ؟

ـ أبحث عن فأر ميت لا أريد أن يبقى هنا حتى ينتن ..

ـ أى فـأر ؟

ـ منذ بضعة أيام وهو يدور هنا .. وخفت أن يفسد الأكل ، أو يقرض الملابس فوضعت له بعض غبرة الفيران فى طبق حليب ، وقد شرب كله .. لابد أنه مات !

وشهقت أم المقدم ووضعت يدها على فمهـا حتـى لا تسمعها العباسة ..

كانت تريد ان تقول لها بأن طفل مـولاى الـوافى ، المختار ، قد مات ذلك الصباح .. قـال الطبـيب انـه مات مسموما بغبرة الفيران ..

احمد عبد السلام البقالى

من منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة

(المديرية العامة للثقافة)

سلسلة : « والقلم »

شجرة محار

مجموعة تأملات

محمد الصباغ

1

عمى بوشناق

قصص

عبد الرحمن الفاسى

2

لولا الانسان

قصص

عبد المجيد بن جلون

3

صدر قريبا :

يد المحبة

قصص

أحمد عبد السلام البقالى

4

مطبعة ومكتبة عصرية
الرباط